# في رحاب
# الفكر العرفاني
## عند
# الإمام الخميني



الدكتور إسماعيل منصور اللاريجاني

ترجمة
نوال خليل


دار الولاء
بيروت - لبنان

# في رحاب الفكر العرفاني
# عند
# الإمام الخميني ﵀




لبـنان - بيـروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 545133 1 00961 - 689496 3 00961 - ص.ب. 25/307
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN: 978-9953-546-09-4

اسم الكتاب: في رحاب الفكر العرفاني عند الإمام الخميني ﴿قدس سره﴾

اسم المؤلف: د. إسماعيل منصوري اللاريجاني

ترجمة: نوال خليل

الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى، بيروت ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

# في رحاب الفكر العرفاني عند الإمام الخميني ﭬ

تأليف

د. إسماعيل منصور اللاريجاني

ترجمة

نوال خليل

دار الولاء
بيروت لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الناشر

المؤلفات العرفانية للإمام الخميني ﴿قدس سره﴾ كنوز ثمينة تحوي من المعارف الإلهية والحقائق الوجودية ما يميزها بفارق كبير عن غيرها من المعارف التي قدمها العرفاء السابقون. فنحن عندما نقوم بدراسة مقارنة سريعة نتلمس بقوة وجود جملة من الخصائص والمميزات في فكر الإمام ﴿قدس سره﴾ تبهر العقول وتسحر القلوب.

فلم يكن دأب الإمام الراحل ﴿قدس سره﴾ في مجال العرفان النظري تكرار ما قدمه العرفاء السابقون من مسائل، بل قام ببيان مسائل لم يتعرض لها غيره من قبل، وتنقيح بعض المطالب الأخرى، إضافة إلى معالجته لبعض معضلات العلوم الإلهية. ومن جانب آخر، استطاع الإمام ﴿قدس سره﴾ أن يؤسس لرؤية عرفانية شيعية تستند في مبانيها إلى العطايا الغيبية التي وصلتنا من منبع ولاية الأئمة الأطهار ﴿عليهم السلام﴾.

لقد تجلى عشق الإمام ﴿قدس سره﴾ الشديد لأجداده الطاهرين في آثاره العلمية والعملية، وكأنه دائم المثول في محضرهم، مستغرقاً في أنوارهم. وهو ما ساهم في إعادة بلورة الرؤية العرفانية من منطلقاته، وإضفاء روح جديدة على مبحث الولاية الذي كان قد طُرح في كتابات العرفاء السابقين. فالإمام ﴿قدس سره﴾ يعتبر ان القراءة السطحية والعابرة لسيرة المعصومين ﴿عليهم السلام﴾

والروايات الواردة عنهم، ينم عن جهل في البيّن، كما أن فهمهما فهماً عرفياً، هو إجحاف وسوء أدب بحقهم.

وهو يعتقد انه ما لم تفتح الشريعة الطريق أمام السالك ليتوجه نحو الباطن، فسيظل بعيداً عن الحقيقة، كما وإن الطريقة التي لا تنطلق من رحم الشريعة، والتي لا تكمل سيرها في ظل الشريعة، ستنحرف وتضل طريقها، ولن تصل أبدا إلى مقصودها الأصلي.

كما يعتبر الامام قدس سره ان الشريعة والطريقة يمثلان ظاهر وباطن الحقيقة، والارتباط الحقيقي بينهما لا يحصل الا في ظل الولاية. ولأن السلوك الظاهري والباطني عند الامام لا يكون الا في ظل الولاية، فهو قدس سره يرى أن طريق الارتباط بعالم الغيب يكون فقط من خلال المعرفة والطاعة الخالصة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام المتحققين بمقام الولاية.

ومن جانب آخر عندمانقوم بدراسة مؤلفات الإمام قدس سره (الأربعون حديثاً) و(سر الصلاة) و(مصباح الهداية)،نلاحظ كيف عقد الإمام قدس سره الهمة لمعالجة معضلات العلوم الإلهية من قبيل: معرفة الله تعالى، تجليات الحق، علم الله، المشيئة والإرادة، القضاء والقدر، الجبر والاختيار... مستفيداً من مجموعة احاديث نورانية وردت عن الائمة الأطهار عليهم السلام، بحيث استطاع بفضل ما اقتبسه من أنوار معارف أهل البيت عليهم السلام أن يقدم حلولاً ناجعة في تلك المجالات. فكل من يتمتع بصفاء السريرة ويُعمل فكره ويطالع مؤلفات الإمام قدس سره سيعثر على إجابات وافية على معظم الإشكالات التي قد تواجهه.

الميزة الأخرى في عرفان الإمام الراحل العملي تجلت في نظرته الى كيفية السير والسلوك. فهو يرى ان ما قُدم من تفصيل في المنازل والمقامات هو مجرد أمر اعتباري. ولهذا اختار ﷺ الصلاة لتكون البراق الذي يعرج من خلاله السالك إلى الله، لكونها الوسيلة الأكثر إحكاما واطمئنانا. ولكي لا يظن السالك انه من الممكن في مرحلة من المراحل أن تنفصل الشريعة عن الطريقة. ولكي يبقى أيضا أثناء عبوره للمقامات مصاناً من آفات الشطح والخيالات الباطلة، لأن ما يناله السالك أثناء ترقيه في مراتب ومنازل الصلاة ما هو إلا فيض رحماني من منبع رباني.

ومن الخصائص البارزة لفكر الإمام العرفاني، إن الإمام استطاع أن يبسط شعاع فكره العرفاني ليشمل كافة العلوم الأخرى، دون الخلل فيما يعتقده من ضرورة المحافظة على استقلالية كل علم من العلوم عندما يتم دراسته من زاويته الخاصة. وهذا لا يتنافى مع كون العرفان الغاية النهائية لكافة العلوم.

فالإمام ﷺ يعتقد أن كل نتاج علمي لا يقود إلى العرفان هو حجاب، ونحن نتلمس هذا الاعتقاد بشدة في آثاره وأعماله ونتاجاته الفكرية. فمن لا يعرف الامام معرفة تامة، وقام بمطالعة مؤلفاته الفقهية فقط سيظن أنه مجرد فقيه.

وأيضاً من يقتصر على مطالعة فكر الإمام العرفاني، سيكون انطباعه الأولي أن الإمام لم يستفد من الفقه والفلسفة.

ولكن عند التدقيق سيدرك تسلط الامام الكامل على كافة العلوم، مع محافظته على استقلالية كل علم وجعله في مكانه الخاص به.

فتأثير فكر الامام العرفاني في المجالات العلمية الاخرى بلغ من الشدة بحيث يمكن القول معه ان الشفافية التي تُلاحظ في فقه الإمامﷺ وفلسفته وحتى في أسلوبه في الحكم والسياسة إنما هو ناشئ من فكره العرفاني. وبعبارة أخرى لقد أثبت بأم العين برغم حفاظ كل علم على استقلاليته وهويته انه ما وصل إلى كماله الا في ظل العرفان.

وإذا اعتبرنا أن هذا التسلط والإتقان عند الإمامﷺ قد وصل الى حد الإعجاز فلا مبالغة في ذلك.

ومن جانب آخر، يمتاز فكر الإمام العرفاني بعمق اتصاله بنهضة عاشوراء المخضبة بالدماء، فالإمام كان فانياً بكل وجوده في عشق سيد الشهداءعليه السلام، ولا يرى الثورة الإسلامية إلا قبس من نور نهضة عاشوراء. وان سطوع هذا الفكر الرباني طوال سنوات الدفاع المقدس الثمانية، والمعنويات العالية التي سرت من روحه الوالهة إلى أرواح المجاهدين علي الجبهات، يحمل من الأسرار والحقائق الخافية التي من الصعب جداً اماطة اللثام عنها.

أما ما قدمه هذا العبد المقر بتقصيره وعجزه، خادم الإمام العزيز، من بضاعة مزجاة في هذا المؤلَف، ماهو الا باقة من روضة الفكر العرفاني عند الإمام الراحلﷺ، وذلك لكي يتعرف عشاق الولاية الحقيقيين على بعض الحقائق الفائضة من خزانة المعاني وخزانة الغيب العلوية.

ولقد كانت منهجيتنا في إعداد هذا الكتاب، التعرض إلى مجموعة من المسائل التي لم يتم التطرق إليها من قبل في مباحث

العرفان الإسلامي، بالإضافة إلى بيان جملة من الحقائق وفقاً لمسلك العرفان الشيعي، وكل ما وفقنا اليه ما هو إلا رشحات من فيض علمه الغزير.

ولقد أردنا من خلال انتخاب جملة من المسائل والأسرار الحكمية التي بمعرفتها يمكن أن نعثر على مفتاح الحل للعديد من معضلات العلوم الإلهية، أن نفتح الباب أمام الباحثين وعطاشى الحقيقة لعلهم يدركون ضالتهم، فنضيف فصلاً جديداً على صفحات العرفان والحكمة الإلهية.

وكم كنا نود لو أن عمر الإمام ﷺ طال أكثر، ولا زالت الأنوار الملكوتية تسطع من مصباح وجوده النادر لتنوّر الآفاق والنفوس، فينتفع عاشقوا فكره ونهجه من بركاته وفيوضاته أكثر فأكثر.

ويا ليتنا كنا أكثر استقامة ويقظة ومعرفة بالحق، إذ لكان الإمام العزيز قد أطلق العنان لقلمه في أكثر من موضع في كتاباته، ولم يتوان عن بيان ما خفي من الحقائق.

ويا حبذا لو أن ضعف استعداداتنا وغفلتنا وحجبنا المانعة من نيل اللذائذ المعنوية، تزول ببركة ما يدّخره وجوده المقدس من ذخائر علوية.

**منصور اللاريجاني**

# الفصل الأول

## معرفة الله وتجلياته

# معرفة الله وتجلياته

## مرتبة الذات الأحدية

الذات الإلهية هي حقيقة مستورة في خزانة الغيب خلف سرادق النور والحجب الظلمانية، ويطلق عليها اسم (الحقيقة الغيبية).

وليس هناك من أثر ولا علامة ولا أسم ولا رسم يحكي عن هذه الحقيقة المقدسة في كافة عوالم الملك والملكوت.

لأن الاسم والرسم يميزان الشيء ويكشفان عنه، لذا ينبغي أن ينطبق ذلك الاسم على الشيء لكي يكشف عنه. وبما أن الحقيقة الغيبية لا ينطبق عليها أي مفهوم من المفاهيم فلا يمكن الكشف عنها، فهي باقية أزلاً وأبداً في مقام (العماء والغيب).

يقول الإمام الخمينيﷺ في وصف هذه الحقيقة:

**«هذه الحقيقة الغيبية لا تنظر نظر لطف أو قهر ولا تتوجه توجه رحمة أو غضب إلى عوالم الغيب والشهادة من الروحانيين القانطين في حضرة الملكوت والملائكة المقربين الساكنين في عالم**

**الجبروت، بل هي بذاتها، بلا توسط شيء، لا تنظر إلى الأسماء والصفات ولا تتجلى في صورة أو مرآة، غيب مصون من الظهور، مستور غير مكشوف عن وجهها حجاب النور. فهو الباطن المطلق والغيب الذي لا يكون مبدأ لأي اشتقاق»**[١].

والمقصود من احتجاب واستتار الذات الإلهية المقدسة هو احتجابها بالحجب النورانية. وهو أيضاً بحسب مراتب ومقامات السالكين، وإلا فبالنسبة للمقربين لا يمكن لأي اسم أو صفة أن يحجبها عن قلب السالك.

لذلك نحن نقرأ في دعاء عرفة: **«عن قلوبهم متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك»**.

فإن كنت تطلب الله في الباطن فهو الظاهر، وإن تريده في عالم الظهور فهو الباطن. وإن تطلبه في الظهور والبطون معاً فهو منزه عنهما، ولهذا يقول أشرف الخلق وسيد الكائنات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: **«ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك»**.

وهذه الحقيقة الغيبية التي لا تنالها أيدي العاشقين والعرفاء والأولياء الكمل، تسمى مرتبة الذات الأحدية.

## مرتبة الذات الواحدية

**«لابد لظهور الأسماء وبروزها وكشف أسرار كنوزها من خليفة الهي غيبي، يستخلف عنها (الذات) في الظهور في الأسماء ويعكس نورها في تلك المرايا، حتى تنفتح أبواب البركات وتنشق عيون الخيرات وينفلق صبح الأزل ويتصل الآخر بالأول. فصدر الأمر باللسان الغيبي من مصدر الغيب على الحجاب الأكبر**

(١) الإمام الخميني، مصباح الهداية، ص ١٤

**والفيض الأقدس الأنور بالظهور في ملابس الأسماء والصفات ولبس كسوة التعينات؛ فأطاع أمره وأنفذ أمره»**[١].

وعلى ضوء هذا، يلاحظ أن أول تعين في مرتبة (الذات الواحدية)، إنما حصل بواسطة الخليفة الإلهي بقصد الظهور والتجلي في مقام الأسماء. والعرفاء يعتبرون مقام التجلي بالفيض الأقدس هو مبدأ الأسماء الذاتية، بينما مقام التجلي بالفيض المقدس هو مبدأ الصفات الفعلية[٢].

هذا ويعتبر الإمام الراحل ﵀ «**الاسم الأعظم**» هو الخليفة الإلهي في مقام التجلي بالفيض الأقدس، وهو نفسه روح الخلافة المحمدية.

**«هذه الخلافة هي روح الخلافة المحمدية، وربها وأصلها ومبدؤها. منها بدأ أصل الخلافة في العوالم كلها، بل اصل الخلافة والخليفة والمستخلف اليه. وهذه (الخلافة) ظهرت تمام الظهور في حضرة اسم (الله)الأعظم رب الحقيقة المحمدية المطلقة أصل الحقائق الإلهية الكلية. فهي أصل الخلافة والخلافة ظهورها»**[٣].

كذلك يرى الإمام ﵀ أن الاختلاف بين الفيض الأقدس والاسم الأعظم أمر اعتباري، مثلما أن الاختلاف بين كل من المشيئة والفيض المقدس وبين التعين الأول الذي يعرف عند الحكماء بالعقل الأول هو أمر اعتباري أيضا.

---

(١) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص١٧

(٢) جامي، نقد النصوص، فصل ٢، ص ٣٨ – ٣٩.

(٣) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ٢٧.

**«إن الاسم الأعظم المستجمع لجميع الأسماء والصفات مع اشتماله للكثرات واستجماعه للرسوم والتعينات كان من أفق الوحدة أقرب. وكان ذلك الاشتمال بوجه منزه عن الكثرة الحقيقية، بل حقيقته متحدة مع الفيض الأقدس ومقام الغيب المشوب واختلافهما بمحض الاعتبار، كاختلاف المشيئة والفيض المقدس مع التعين الأول المعبر عنه في لسان الحكماء بالعقل الأول»**(١).

## الاسم الأعظم أو الخليفة الإلهي

**«ان لله تبارك وتعالى اسماً أعظم... وله حقيقة بحسب مقام الالوهية، وحقيقة بحسب مقام المألوهية، وحقيقة بحسب اللفظ والعبارة . وأما الاسم الأعظم بحسب الحقيقة الغيبية التي لا يعلمها الا هو ولا استثناء فيه، فبالاعتبار الذي سبق ذكره، وهو الحرف الثالث والسبعون المستأثر لنفسه في علم غيبه»**(٢).

يستند الإمام الخمينيّ ﵀ في كلامه إلى حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال:

**«إن عيسى بن مريم أعطي حرفين كان يعمل بهما، وأعطي موسى أربعة أحرف، وأعطي إبراهيم ثمانية أحرف، وأعطي نوح خمسة أحرف، وأعطي آدم خمسة وعشرين حرفاً، وإن الله تعالى جمع ذلك كله لمحمد ﷺ، وإن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون**

(١) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ١٩.

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ٧٦.

**حرفاً أعطي محمد ﷺ اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحد»[١].**

## الاسم الأعظم في مقام الالوهية وتجلياته

**«وأما الاسم الأعظم بحسب مقام الالوهية والواحدية هو الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهية جامعية مبدأ الأشياء وأصلها»[٢].**

يعتقد الإمام ﷺ إن الاسم الأعظم باعتبار الالوهية حاكم على كافة الأسماء، وجميعها مظاهره. ولا يتجلى هذا الاسم بتمام حقيقته إلا لذاته أو لمن ارتضاه الحق من عباده فيكون مظهره التام، كما تشير الآية الكريمة: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[٣].

والإمام الراحل ﷺ يعتقد أن هذا الرسول ليس سوى الحقيقة المحمدية والأولياء المتحدين معه بالروحانية. وذلك الغيب (الاسم الاعظم) هو نفس هذا الغيب الذي لا يظهره الله إلا على من ارتضاه من عباده.

**«وليس في النوع الإنساني أحد يتجلى له هذا الاسم على ما هو عليه إلا الحقيقة المحمدية ﷺ وأوليائه الذين يتحدون معه في الروحانية، وذلك الغيب هو الذي استثنى منه من ارتضى من عباده»[٤].**

---

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ٧٦.

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ٧٦.

(٣) سورة الجن، ٢٧،٢٦.

(٤) الامام الخميني، دعاء السحر، ص ٧٧.

## الحقيقة المحمدية عين الاسم الأعظم

يعتبر الإمام الخميني﴿قدس سره﴾ ان الحقيقة المحمدية هي عين الاسم الأعظم، وعينها الثابتة متحدة مع الاسم الأعظم في المقام الإلهي. ودليله هو أن الأعيان الثابتة ما هي إلا تعينات الأسماء الإلهية، وتعين كل شيء في الخارج هو عين ذلك الشيء المتعين، والشيء ليس إلا ذلك التعين. وفقط في مقام العقل هناك مغايرة بين التعين والمتعين. فالأعيان الثابتة عين الأسماء الإلهية، وبالمحصلة:

**«العين الثابتة من الحقيقة المحمدية عين الاسم الله الأعظم، وسائر الأسماء والصفات والأعيان من مظاهره وفروعه أو أجزائه باعتبار آخر»** [(١)].

وعليه أعتبر الإمام الراحل﴿قدس سره﴾ الحقيقة المحمدية متجلية في جميع العوالم، وأن كل ذرة من المراتب الوجودية هي تفصيل هذه الصورة، كما انه يرى أن الحقيقة المحمدية مساوقة لظهور المشيئة المطلقة التي بذاتها لا تعين لها، بل بها تكون حقيقة كل ذي حقيقة. هذا ويعتبر الإمام﴿قدس سره﴾ أن الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ متحد مع الرسول الأكرم في هذا المقام .

وهو سلام الله عليه بحسب مقام الروحانية متحد مع النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ **«أنا وعلي من شجرة واحدة »** وقال : **«أنا وعلي من نور واحد»** إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالة على اتحاد نورهما ﴿عليهما السلام﴾ وعلى آلهما[(٢)].

---

(١) الامام الخميني، دعاء السحر، ص ٧٧.

(٢) الامام الخميني، دعاء السحر، ص ٧٨.

## بعض الأسرار من وحي كلمات الإمام الخميني النورانية

عند التأمل في الكلمات النورانية للإمام الراحل حول اتحاد الاسم الأعظم مع الحقيقة المحمدية والحقيقة العلوية، يمكن الخلوص بمسألتين تعتبران لب المباحث العرفانية، وهما تتمحوران حول الخليفة الإلهي الجامع للكمال وللأسماء الإلهية:

**أن أفقه الوجودي أقرب إلى الفيض الأقدس.**

يقول الإمام الراحل في هذا الخصوص:

**«كل اسم كان أفقه أقرب إلى أفق الفيض الأقدس، كانت وحدته أتم وجهة غيبه أشد وأقوم، وجهات الكثرة والظهور فيه أنقص»**[1].

ومن هنا تكون الحقيقة المحمدية التي أثبت الإمام عينيتها للاسم الأعظم الله، أفقها الوجودي هو الأقرب إلى الفيض الأقدس، الذي هو أول تجلي ذاتي. حتى أن الإمام يعتبر الاختلاف بين الاثنين أمراً اعتبارياً، وأنهما متحدان في مقام الغيب المشوب. مستنداً في كلامه إلى آيات القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[2].

أي أن أفقه الوجودي مساوق لعالم الغيب، ولا حجاب بينه

(١) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص١٩.

(٢) سورة التكوير، ٢٤،٢٣.

وبين عالم الغيب.

وأيضاً ورد في سورة النجم المباركة: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[1].

ويعود الضمير (هو) إلى الرسول الأكرم، أما الضمير في كلمة (عبده) فمن الواضح انه يعود إلى الله تعالى.

ومن هنا يخلص الإمام الراحل أن كل وجود يكون أفقه أقرب إلى الله تعالى، يكون أبسط وأكمل، وكذلك يكون وجوده إحاطي ويشتمل على الكثرات والعوالم الأدنى مرتبة.

**«وأعلم أن الوجود كلما كان أبسط وبالوحدة أقرب كان اشتماله على الكثرات أكثر وحيطته بالمتضادات أتم».**

لذلك يعتبر الإمام الحقيقة المحمدية مساوقة للوجود المنبسط وللمشيئة المطلقة، وهي سارية في كل العوالم، من العقل الأول وحتى عالم الهيولى. وفيما يخص الحقيقة العلوية فهي متحدة معها في هذا المقام استناداً إلى أحاديث الرسول الأكرم.

(١) سورة النجم، ٧، ١٠.

# الإحاطة العلمية والحبية بحقائق الأسماء الإلهية

مثلما أن الله تعالى يتجلى في مقام الأحدية بنوعين من التجلي العلمي والحبّي، كذلك خليفته في مقام الظهور لا بد ان يكون متحققاً بالعلم والمحبة التامة. استناداً الى الحديث القدسي «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق**».

حيث تشير كلمة (كنت) إلى أن الذات عالمة بذاتها، وأن العلم بالذات هو منشأ العلم بكمالات الذات في مرتبة الأحدية. وكلمة (فأحببت) تبين حب الذات لكي تُعرف الأسماء وتظهر، وبالنتيجة اقتضت المحبة الإلهية ظهور الذات بجميع الصفات على نحو التفصيل. يقول القيصري في هذا الخصوص:

«**علمه بذاته أوجب العلم بكمالات ذاته في مرتبة أحديته، ثم المحبة الإلهية اقتضت ظهور الذات بكل منها**»[1].

بناء عليه تكون المحبة من لوازم العلم وهي منشأ ظهور الكمالات الذاتية. وكذلك الخليفة الإلهي لكي يتحقق بمقام الظهور الاطلاقي، لابد أن يتصف بهذه الخصوصيات الثلاث:

**أولاً**: يقتضي مقامه المنبسط إحاطته العلمية.

**ثانياً**: مالم يكن الخليفة عالماً بالأسماء الإلهية، لا يمكنه أن يوصل استعداداتها إلى الظهور.

ثالثاً: إذا لم يكتمل الحب في العوالم الاسمائية، لن يتحقق الظهور،

---

(١) العلامة القيصري، شرح فصوص الحكم، المقدمة.

على رغم اختلاف مراتب العلم والحب بحسب العوالم. وبحسب قول الإمام الراحل : «**إن ظهور المحبة الإلهية في كل عالم، يتناسب مع ذلك العالم**».

ويقول أيضاً:

«**اعلم أن المحبة الإلهية التي بها ظهر الوجود، وهي النسبة الخاصة بين رب الأرباب الباعثة للإظهار بنحو التأثير والإفاضة، وبين المربوبين بنحو التأثر والاستفاضة، يختلف حكمها وظهورها بحسب النشآت والقوابل، ففي بعض المراتب يكون حكمها أتم وظهورها أكثر، كعالم الأسماء والصفات وعالم صور الأسماء والأعيان الثابتة في النشأة العلمية**»[١].

فالامام يرى أن المحبة الإلهية هي علة ظهور الوجود، كما تتفاوت نسبة المحبة بحسب العوالم، مما يعني أن الخليفة الإلهي الذي مرتبته هي الأقرب الى أفق الأحدية، والذي هو واسطة فيض الوجود بين الله تعالى وسائر العوالم، لابد أن يكون علمه تام وكذلك محبته، وإلا لما استحق مقام الخلافة الإلهية. ولهذا نجد الإمام يتحدث عن الحقيقة المحمدية والحقيقة العلوية في كل مناسبة، لانحصار العلم والمحبة بمعناهما التام في محمد وآل بيته. والاطلاع على هذا المعنى يورث أنسا مضاعفا أثناء قراءة الزيارة الجامعة والتدبر في معانيها.

(١) الامام الخميني شرح دعاء السحر، ص ١٣١.

## الفصل الثاني

# علم الحق تعالى

# علم الحق تعالى

من المباحث المهمة التي دارت حولها نقاشات حادة بين الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين، مسألة علم الحق تعالى.

وبالخصوص علمه تعالى بالأشياء قبل الإيجاد في الحضرة العلمية، وعلمه تعالى بالأشياء بعد تحقق وجودها الخارجي، وهو العلم بعد الإيجاد.

وادراك هذين العلمين بالاضافة إلى معرفة كيفية تعلق العلم الربوبي بالكليات والجزئيات يعتبران من أشد المباني الحكمية صعوبة.

وبرغم كثرة الأدلة التي ذكرها المحققون والباحثون في كتبهم ومسفوراتهم عن علم الحق تعالى، وبالأخص حول طبيعة علمه التفصيلي بالأشياء، إلا أنه وبسبب إهمالهم لبعض الجوانب الضرورية أثناء مطالعتهم للأحاديث الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وحملة الوحي، لم يوفقوا كثيراً في الكشف عن حقيقة هذا الأمر. لذا سوف ننقل بنحو مجمل بعض آراء كبار العلماء في هذا المجال، لكي يتضح لنا أكثر رأي الإمام وما أورده من استدلالات بعيدة عن التعقيد عند معالجته لهذه المسألة.

# آراء كبار العلماء حول علم الحق تعالى

## (أ) ابن سينا

تباينت آراء الحكماء في علم الحق تعالى، وأكثر ما ظهر هذا التباين بخصوص علم الحق التفصيلي بالأشياء. ويعد ابن سينا من جملة القائلين بأن منشأ علم الحق التفصيلي هو الصور المرتسمة في الذات. فهو يشير في كتابه الإشارات إلى أن إحاطة علم الحق بالأشياء تقوم على أساس ترتيب العلية والمعلولية.

**«واجب الوجود؛ يجب أن يعقل ذاته بذاته على ما تحقق، ويعقل ما بعده من حيث هو علة لما بعده ومنه وجوده، ويعقل سائر الأشياء من حيث وجودها في سلسلة الترتيب النازل من عنده طولاً وعرضاً»**[(١)].

فالشيخ الرئيس يعتقد بأن علم الحق التفصيلي بالأشياء ليس في مرتبة الذات، بل في مرتبة متأخرة عن الذات وبواسطة صور مرتسمة، ويستنتج في النهاية أن الله تعالى له إحاطة علمية بالموجودات على أساس ترتيب العلية والمعلولية.

وهو في كتابه الإشارات بعد إبطاله لمبدأ اتحاد العاقل والمعقول، واتحاد النفس مع العقل الفعال، وبيانه لكيفية ارتسام الصور العقلية في الجوهر العاقل، ولطبيعة ارتسام الصور العقلية في ذات الواجب والمبادئ العقلية، يقول:

(١) العلامة الطوسي، شرح الاشارات، ج٣، ص ٣٠٠، طبعة طهران.

(الصور العقلية قد يجوز بوجه ما أن تستفاد من الصور الخارجية، مثلاً كما نستفيد صورة السماء من السماء، وقد يجوز أن تسبق الصورة أولا إلى القوة العاقلة، ثم يصير لها وجود في الخارج، مثل ما تعقل شكلاً ثم تجعله موجوداً. ويجب أن يكون ما يعقله واجب الوجود من الكل على الوجه الثاني)[1].

## (ب) الخواجة الطوسي

يقول الخواجة الطوسي في شرحه للإشارات، بعد تفسيره لعبارة ابن سينا:

**«لا ريب أنه يلزم من الاعتقاد بثبات لوازم الواجب تعالى في ذاته، أن يكون الشيء الواحد قابلاً وفاعلاً في نفس الوقت، وأن يتصف الواجب تعالى بصفات غير إضافية وغير سلبية، كما قد بين الشارح الفاضل فخر الدين الرازي؛ و يلزم أيضاً من ثبوت اللوازم أن يكون الواجب تعالى محلاً للمعلولات التي هي بأسرها ممكنة، بينما الله منزه عن هذه الأوصاف ومبرئ منها، وكذلك يلزم من هذا الاعتقاد أن لا يكون المعلول الأول والصادر الأول مبايناً للذات، وان لا يكون الله قد خلق شيئاً مبايناً لذاته. وهذه الاعتقادات تخالف ظاهر عقيدة الحكماء والقدماء الذين قد سلبوا العلم عن الله؛ وأيضا تخالف عقيدة أفلاطون التي ترى أن الصور المعقولة تقوم بذاتها، وأيضا على خلاف مذهب الفلاسفة المشائين الذين لا يعتقدون باتحاد العاقل والمعقول، فهم ولأجل الفرار من قبول**

(١) الشيخ الرئيس، الاشارات، النمط السابع، الفصل الثالث عشر.

**هذه الأمور المحالة توجهوا إلى تلك العقائد غير الصحيحة؛ ولو لم اشترط على نفسي عند بداية معالجتي لإشكالات الإشارات، انه في كل مرة أختلف في الرأي مع ابن سينا في هذا الكتاب، لم أكن لأتعرض له، بل كنت أبين موضحاً أن سبيل الخلاص من هذه الاعتراضات لا يكون من خلال إيراد الانتقادات عليها. وصحيح أن الوفاء بالشرط هو أكثر إلزاما، لكن بناء لما قدمته لا يمكنني أن أبقى صامتاً ولا أتعرض لما تقدم. فلمن يفهم المسائل بالإشارة، ويتضح له الحق بكلام وجيز أقول:**

**كما أن الذات العاقلة في إدراكها لذاتها لا تحتاج بوجه آخر إلا لذاتها، كذلك الواجب تعالى في إدراكه للأشياء الصادرة منه، لا يحتاج إلى شيء آخر سوى وجوداتها العينية وصورها»**[١].

يتقاطع العلامة الطوسي مع شيخ الإشراق في بعض الآراء، فهو يعتبر علم الحق بالأشياء وبصفحات الممكنات علماً حضورياً. ولكنه لا يقول بالعلم التفصيلي قبل الإيجاد، وفي موارد أخرى يعتبر علم الحق بذاته وبالعقل الأول، علم تفصيلي. ويرى أن ملاك علم الحق التفصيلي بالموجودات بعد العقل الأول، هو صور مرتسمة في العقل. هذا وترد عليه جملة الإشكالات التي سيقت حول الصور المرتسمة في ذات الحق، كما وردت على المشائين: من الفارابي، والشيخ الرئيس، ولوكري، وبهمنيار، إضافة إلى القائلين بالصور المرتسمة[٢].

(١) الشيخ الطوسي، شرح الاشارات، الطبعة الحجرية، ص ٩٣ – ١٩٢.

(٢) جلال الدين آشتياني، شرح مقدمة القيصري، ص ٢٨٣.

## (ج) شيخ الإشراق

يعتبر شيخ الإشراق علم الحق تعالى إضافة نورية إشراقية بين الله وبين الأشياء.

**«لما تبين أن الإبصار ليس من شرطه انطباع شبح أو خروج شيء، بل يكفي عدم الحجاب بين الباصر والمبصر، إذ عند مقابلة المستنير للعضو الباصر يقع علم إشراقي للنفس. فنور الأنوار ظاهر لذاته على ما سبق، وغيره ظاهر له، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، إذ لا يحجبه شيء عن شيء. انه إذا لم يحجبه شيء عن شيء، فعلمه وبصره واحد ونوريته وقدرته»**[١].

وفي تتمة كلامه بخصوص إبطال الآراء القائلة بالصور المرتسمة في ذات الحق، ينكر شيخ الإشراق علم الحق التفصيلي قبل ايجاد الأشياء.

**«فإذن الحق في العلم على قاعدة الإشراق، هو أن علمه بذاته هو كونه نوراً لذاته وظاهراً لذاته، وعلمه بالأشياء كونها ظاهرة له إما بأنفسها أو بمتعلقاتها التي هي مواضع الشعور المستمر للمدبرات العلوية، وذلك إضافة وعدم الحجاب سلبي، والذي يدل على أن هذا القدر كاف في علمه بها، هو أن الإبصار لما كان بمجرد إضافة ظهور الشيء للبصر مع عدم الحجاب، فإضافته إلى كل ظاهر له، إبصار وإدراك له، وتعدد الإضافات العقلية لا توجب**

---

(١) السهروردي، حكمة الاشراق، الطبعة الحجرية، طهران، ١٣١٣ ق، ص ٣٥١.

**تكثيراً في ذاته»**[١].

ولأن شيخ الإشراق يرى الحق تعالى فاعلاً بالرضا، فهو لا يقول بالعلم التفصيلي للحق تعالى قبل إيجاد الأشياء. ويرى أن العلم بالذات على نحو التفصيل، والعلم بالحقائق قبل الإيجاد على نحو الإجمال، وانكشاف الحقائق في مقام الفعل على نحو التفصيل، في باب علم الحق، يفي بالغرض.

لم ينمّ كلام شيخ الإشراق في مسألة علم الحق تعالى عن عمق وتحقيق واف، لأن علم الحق بالأشياء، إذا كان من خلال نفس ذوات الأشياء، عندئذ ستكون الذوات النورية متأخرة عن ذات الحق. وعلى فرض كون ملاك علم الحق بالأشياء هو الإضافة الاشراقية للحق، أيضا ستكون الإضافة الاشراقية متأخرة عن ذات الحق. كما أنه لم يتضح جلياً كيفية تعلق علم الحق بوجود الأشياء قبل الإيجاد في مقام الذات.

## د. الفيلسوف الحكيم صدر المتألهين

يستند الفيلسوف الحكيم صدر المتألهين إلى قاعدة (بسيط الحقيقة كل الأشياء» في إثباته لمسألة العلم التفصيلي للحق تعالى.

**«إن واجب الوجود بسيط الحقيقة غاية البساطة، وكل بسيط الحقيقة كذلك فهو كل الأشياء، فواجب الوجود كل الأشياء، لا يخرج عنه شيء من الأشياء وبرهانه على الإجمال،**

(١) السهروردي، حكمة الاشراق، الطبعة الحجرية، طهران، ١٣١٣ ق، ص ٢٨٤.

**أنه لو خرج عن هوية حقيقة شيء، لكان ذاته بذاته مصداق سلب ذلك الشيء، وإلا لصدق عليه سلب سلب ذلك الشيء، وإذ لا مخرج عن النقيضين وسلب السلب مساوق للثبوت، فيكون ذلك الشيء ثانياً غير مسلوب عنه وقد فرضناه مسلوباً عنه هذا خلف، وإذا صدق سلب ذلك الشيء، لكانت ذاته متحصلة القوام من حقيقة شيء ولا حقيقة شيء، فيكون فيه تركيب ولو بحسب العقل بضرب من التحليل وقد فرضناه بسيطاً وهذا خلف»**[1].

فلأن ذات الحق في غاية البساطة والصرافة، لا يمكن أن يسلب عنها أي كمال في مقام الذات. وبعبارة أخرى لأن الحق تعالى في مقام الذات واجد لجميع عوالم الوجود على نحو الصرافة والكمال، فلا مقابل له في الوجود والعلم والقدرة والإرادة.

وعليه إذا فُرض عدم توفر الحق على مرتبة من الكمال الوجودي بنحو أتم وأشرف، وكانت الذات المقدسة فاقدة لها، عندئذ تصبح ذاته مصداقاً لسلب ذلك الكمال. كما أن تركب الشيء من وجدان وفقدان يحكي عن نقص وجودي ومحدودية ذاتية.

إذا على أساس هذه القاعدة اثبت صدر المتألهين العلم التفصيلي للحق في مقام الذات. ودليله على كون الحق عالماً علماً تفصيلياً بجميع العوالم، هو نفس كونه بسيط الحقيقة وواجد لجميع الشؤون والكمالات في مرتبة ذاته قبل وجود الموجودات.

(١) صدر المتألهين، الاسفار الاربعة، الطبعة الحجرية، طهران، الفصل ١٠٥، ص ٢٠٢.

## (هـ) العرفاء

يعتبر العرفاء مقام الأحدية مقام تجلي الذات للذات، وهم يعتقدون أن جميع الحقائق مستهلكة في مقام الأحدية.

والحق تعالى يشهد جميع تلك الحقائق على نحو الكثرة في عين الوحدة. وقد عبروا عن هذا الشهود ((برؤية المفصّل مجملاً))، وعن تجلي الحق في مقام الواحدية برؤية المجمل مفصّلاً لانه باعتقادهم أن الأعيان الثابتة والماهيات الممكنة مشهودة للحق تعالى من خلال ظهورها التفصيلي، وهذه الأعيان بتبع الأسماء والصفات، يكون لها تحقق في مقام الواحدية بالثبوت المفهومي.

على ضوء هذا يلاحظ انه من الصعب ومن المعضلات تحليل وفهم كلام العرفاء، اذ كيف يمكن لوجود واحد في مقام الواحدية ان يشتمل على جميع الحقائق الموجودة في العلم بتبع أسمائه وصفاته، كما لا يمكن أن يكون الثبوت المفهومي للأعيان ملاكاً لعلم الحق تعالى، وذلك لان متعلق علم الحق هو نفس حقيقة الوجود، إلا أن نؤول كلام العرفاء على أساس كون الحق بسيط الحقيقة.

من هنا يتضح لنا تفرد صدر المتألهين بتقديم بحث واف حول علم الحق تعالى، منطلقاً من قاعدة بسيط الحقيقة، حيث تمكّن على ضوئها من معالجة الكثير من الإشكالات والمعضلات التي تتمحور حول العلم الإلهي على مر العصور الإسلامية. وفي زماننا المعاصر استطاع الإمام الخميني أن يبلور هذه القاعدة أكثر فأكثر، وأن يبتكر اساليب سهلة لفهم المسائل العرفانية الغامضة.

## (و) الإمام الخميني

سلك الإمام الخمينيﷺ منحى صدر المتألهين في معالجته لمسألة علم الحق تعالى. والملفت في أسلوب الإمامﷺ ارتباطه الوثيق بالحقائق الصادرة من منبع الولاية. فمن خلال كشفه للإشارات الدقيقة وسبره أغوار كلام الأئمة المعصومينعليهم السلام حول علم الحق تعالى، أضفى الإمامﷺ على استدلالاته المزيد من الإتقان والسداد.

يقول الإمامﷺ بعد ذكره أن الفهم الكامل لطرق الماضيين يتطلب منا استيعاب أصول ومقدمات كثيرة:

**لم يستفاد شيء من هذه الأبحاث، بل ازداد التحير، وتضاعف التعقيد. فالأولى اللجوء في توضيح الموضوع إلى بيان سهل قريب إلى أذهان الناس.**

**إن علّية واجب الوجود تعالى شأنه، ومبدئيته، تختلف عن علّية الفاعل الطبيعي، حيث تعمد هذه العلة إلى تركيب المواد الموجودة، وتجزئتها، مثل النجار الذي يضفي تغييرات على القطعة الخشبية، فيزيد قطعة وينقص أخرى. ومثل البناء الذي يجمع ويركب المواد الموجودة، لكن الحق المتعالي فهو فاعل الهي يخلق الأشياء بإرادته ومن دون مواد سابقة، ونفس علمه وإرادته علة ظهور الاشياء ووجودها، فدار التحقق محاط بعلمه، ويخرج من مكامن غيب الهوية، بإظهاره** ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

(١) سورة الانعام، ٥٩.

يقال أن صفحة الأعيان بالنسبة إلى ذاته المقدس جل جلاله، مثل الذهن بالنسبة إلى نفس الإنسان، حيث تخلق النفس في الذهن بإرادتها ما تريد، وتظهر ما هو مكنون في غيب الهوية.

اذاً جميع دائرة التحقق في حيطة العلم، وتظهر منه، وتعود إليه ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

**ويعبارة أوضح: إن العلم بسبب الشيء وعلته التامة، يستلزم العلم بذلك الشيء، فإن علم المنجّم بالخسوف والكسوف في ساعة محددة من يوم معلوم، هو نتيجة علمه بالأسباب، حيث يقوم برصد حركة الشمس والقمر، وحيلولة القمر بين الأرض والشمس، فيحصل له العلم بالكسوف والخسوف، وإذا كان رصده دقيقاً فلن يتخلف الكسوف والخسوف عن علمه مقدار ثانية.**

**ولمّا كانت جميع حلقات الأسباب والمسببات تنتهي إلى الذات المقدس والمبدأ لكل المبادئ، وكان الله سبحانه عالماً بذاته التي هي سبب جميع الموجودات ومن حيث أنها سبب، فله أيضاً علم بالمسببات**[2].

إن جاذبية ودقة كلام الإمام﴿قده﴾ نابعة من عمق ارتباطه بالأئمة المعصومين﴿عليهم السلام﴾ وأحاديثهم، حيث يقول الإمام الصادق﴿عليه السلام﴾ في باب علم الحق تعالى:«**لم يزل الله عز وجل ربنّا والعلم ذاته ولا معلوم،**

(١) سورة البقرة، ١٥٦.
(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص٦٤٩

**والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور؛ فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر والقدرة على المقدور»**[1].

لقد استطاع الإمام الراحل ﷺ بانتخابه لهذا الحديث الشريف، أن يعالج ثلاثة إشكالات جوهرية في باب علم الحق تعالى. كما أنه وضع حداً للنقاشات المحتدمة التي دارت بين الحكماء والمتكلمين على مر العصور المتمادية. وشيّد بنيان العرفان الإسلامي القائم على أساس معرفة الأئمة عليهم السلام؛ فهو يعتبر بقاء جملة من المعارف الإلهية غير واضحة، إنما هو ناشئ من عدم فهم النتاج العلمي النابع من معدن الولاية.

أما الإشكالات الثلاث فهي عبارة عن:

## العلم قبل الإيجاد

يقول الإمام الراحل بخصوص علم الحق التفصيلي قبل الإيجاد:

**«اعلم انه قد ثبت لدى أصحاب البرهان الفلاسفة وأرباب العرفانالعرفاء بأن هذا الحديث الشريف قد أومأ إلى أن العلم بالمعلوم قد كان في الأزل وقبل الإيجاد، وأنه عين الذات المقدس.**

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب الصفات الذاتية، حديث ١.

وأن علمه سبحانه تفصيلي وليس بإجمالي، حيث ورد في الحديث (والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر) ومن الواضح أن البصر والسمع شهود للمبصر والمسموع بصورة تفصيلية»[١].

## تعلق علم الحق بالمعلوم

اعلم انه على ضوء ما أشرنا إليه سابقاً، تنكشف للحق تعالى من خلال علمه البسيط الذاتي والكشف الواحد الأزلي، جميع الموجودات بما هي موجودات وحيثيات وجودية كمالية، اي من جهة كمالها، وتصبح معلومة لديه. وهذا الكشف رغم كونه بسيطاً وواحداً، يكون تاماً وتفصيليا على نحو لا تخرج عن حيطة علمه سبحانه ذرة من سماوات الأرواح، وأراضي الأشباح أزلاً وأبداً. وهذا العلم والكشف هو منذ الأزل، وهو عين ذاته المقدس. والمعلوم المتعين والمحدود، الذي يعود تعينه وتحديده إلى العدم والنقص، يتحقق بالعرض عندما يتعلق به الإيجاد، ويصير معلوماً بالعرض، وهذا التعلق بالعرض يكون بعد الإيجاد. وأشار إليه الإمام عليه السلام في هذا الحديث: «فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم»[٢].

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٤٨.
(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٥٤.

## سمع الحق تعالى وبصره

يعتقد الإمام الراحلﷺ إن إرجاع (السمع) و(البصر) إلى العلم، والذي هو مورد قبول طائفة واسعة من الحكماء والمتكلمين، مخالف لما يستدعيه البحث والتحقيق. كما أن إرجاع بعض الأسماء والصفات إلى بعضها الأخر هو ناجم عن إهمال الحيثيات.

**فلو كان المقصود من إرجاع الإرادة، إلى العلم بالمصلحة، أو إرجاع العلم إلى السمع أو السمع إلى العلم، حينئذ لا إرادة للحق سبحانه وتعالى ولا سمع له ولا بصر، وإنما سمي «العلم» باسم الإرادة والسمع والبصر، وهذا باطل وتقوّل فظيع على الحق تعالى، لأنه يستلزم أن يكون الحق المتعالي مبدأ للوجود من دون أن تكون له إرادة واختيار.**

**إضافة إلى ذلك: إن المعيار في باب اتصاف الحق سبحانه بالأوصاف الكمالية هو أن تلك الصفة لا بد وأن تثبت للموجود بما هو موجود، وأساسا الصفة هي نفس حقيقة الوجود، ومن كمالات أصل ذات الوجود. ولا ريب أن الإرادة هي من الصفات الكمالية للحقيقة الوجودية المطلقة. ومن هنا كلما تنزل الوجود نحو المنازل السافلة، كلما ضعفت الإرادة فيه، حتى يصل إلى درجة تسلب منه الإرادة، ويراه عامة الناس عديم الإرادة، كما هو حال الأمور الطبيعية مثل المعادن والنباتات. في حين أن الوجود كلما سما نحو الكمالات وتصاعد نحو الأفق الأعلى، كلما ظهرت الإرادة فيه أكثر وأقوى، كما نرى ذلك في تسلسل الموجودات الطبيعية حيث**

أنه عندما نتجاوز مقام الهيولى والجسم والعنصر والمعدن والنبات تظهر الإرادة والعلم وكلما صعدنا أكثر كملت هذه الجوهرة أكثر، حتى أن الإنسان الكامل يملك إرادة كاملة يستطيع بها أن يحوّل العنصر إلى عنصر آخر، فعالم الطبيعة خاضع لإرادته، فنكتشف بأن الإرادة من الصفات الكمالية للوجود، وللموجود بما هو موجود، ونثبت هذه الحقيقة للذات المقدس الحق من دون رجوع إلى حقيقة أخرى.

وهكذا نجد انطلاقاً من الدراسات العميقة الجديرة بالإذعان والتصديق، أن السمع والبصر من كمالات الموجود المطلق، وأن حقيقة السمع والبصر لا تتقوم بأدوات الحس، وليست هي من العلوم المقيدة بالآلات والأدوات، بل المحتاج إلى الآلات هو ظهور سمع وبصر النفسِ في عالم الطبيعة وملك البدن. كما أنه في مقام العلم يُحتاج أيضاً إلى أداة تدعى بأم الدماغٍ، لكي يظهر العلم في عالم المُلك والطبيعة، وهذا كله ليس ناجماً عن قصور ونقص في العلم أو السمع أو البصر، وانما من نقص عالم الطبيعة والملك.

ثم أن السمع والبصر لو تجردا، واستغنيا عن المادة، لاستطاعا البلوغ إلى مستوى رؤية حقائق عالم الغيب، وسماع كلام الملكوتين من الملائكة والروحانيين في الملأ الأعلى. كذلك كان موسى كليم الله في مناجاته، يسمع كلام الحق. وخاتم المرسلين المكرم يتحدث مع الملائكة، ويرى الصورة الملكوتية لجبرائيل، من دون أن تسمع أذن أحد ذلك الحديث، وتبصر عين ذلك المشهد، رغم حضور بعض

الناس لدى نزول الوحي على الرسولﷺ ولكنهم لم يبصروا المشهد.

وملخص القول أن السمع والبصر هما من العلوم الزائدة على أصل العلم، ويغايران حقيقة العلم ويعتبران من الكمالات المطلقة للوجود، فلا بد من إثباتهما للحق المتعالي الذي يعد مبدأ الوجود، ومنبع كمالاته.

أما لو كان مقصودهم من إرجاع الإرادة والسمع والبصر إلى العلم، أو العلم إلى الإرادة والسمع والبصر، من أن حيثية العلم والإرادة في الحق سبحانه هي حيثية واحدة، وأنه لا حيثيات مختلفة للبصر والسمع والعلم في الحق تعالى، فهو كلام صحيح وموافق للبرهان، ولكن لا وجه لاختصاص هذا الكلام بهذه الصفات، بل أن مطلق الصفات ترجع إلى حقيقة الوجود الصرفة، وهذا المعنى لا يتنافى مع إثبات الصفات المتغايرة والكثيرة لذات الحق سبحانه، بل يكون موافقاً له، لأننا بيّنّا بأن الوجود كلما كان أقرب إلى أفق الوحدة وأبعد من دائرة الكثرة، كلما كان جامع أكثر للأسماء والصفات، إلى أن يبلغ مقام صرف الوجود، والحقيقة البسيطة الواجبة - جلّت عظمته وعظمت قدرته الذي هو في منتهى الوحدة والبساطة[1].

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦١٤.

## نتيجة البحث

ويخلص الإمام الراحل ﷺ في كلامه حول علم الحق تعالى، إلى نتيجة مفادها:

**«علمه تعالى بالأشياء هو الكشف التفصيلي في عين العلم البسيط الإجمالي»**[1].

أي أن علم الله تعالى بأي شيء بعد وجوده، يكون مثل علمه بذلك الشيء قبل وجوده.

ويقول الإمام الراحل ﷺ في معرض إثباته بساطة العلم الإلهي:

**«ولولا هذا العلم البسيط في حضرة الذات لم تتحقق الحضرة الواحدية الاسمائية والصفاتية، ولا الأعيان الثابتة المتحققة في الحضرة العلمية بالمحبة الذاتية، ولا الأعيان الموجودة»**[2].

وعليه يتضح بواسطة الكشف والشهود، أن علم الحق تعالى بذاته هو عين علمه بكمالات ذاته ولوازم أسمائه وصفاته. والخلاصة أن منشأ العلم التفصيلي هو لوازم الأسماء والصفات. وهذه مسألة مهمة وحساسة ينبغي الالتفات إليها جيداً، لان فهمها يعتبر مفتاحاً لتأسيس بحثنا التالي حول القضاء والقدر ومشيئة الله تعالى وإرادته.

وبعبارة أخرى، إن وجود الشيء مقدم على وجود خصوصياته ولوازمه.

---

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١١٧.

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١١٩.

كذلك العلم الإجمالي بالشيء مقدم على العلم التفصيلي به. وعليه فوجود الماهيات متفرع وتابع لعلم الله الإجمالي، ووفقاً له يتحصل التعين والتحقق الوجودي. أما تعين علم الله التفصيلي بالماهيات فهو على أساس اقتضاء وتعين حالات الماهيات واستعداداتها. فاستعداد كل شيء هو علة تعين علم الله التفصيلي به؛ وهذا هو معنى (الكشف التفصيلي في عين العلم البسيط الاجمالي).

## العلم الشهودي

لقد أظهر الإمام الراحل ﷺ من خلال عرضه لسبل إثبات علم الحق تعالى، أن فهم واستيعاب الحقائق الإلهية خارج عن عهدة براهين المشائيين وأقيسة الفلاسفة وجدال المتكلمين. وأن هذا العلم مختص بأصحاب القلوب من أهل الله الذين سلكوا سبيل المجاهدة فاستنارت بواطنهم من مشكاة النبوة ومصباح الولاية.

**«وهذا العلم مختص بأصحاب القلوب من المشايخ المستفيدين من مشكاة النبوة ومصباح الولاية بالرياضات والمجاهدات»**[1].

ويسمي الإمام الراحل ﷺ هذا العلم الخاص بالعلم الشهودي، وهو يحصل لكل سالك فنى في ذات الله وصفاته وأسمائه وبقي ببقاء الذات.

**فاذا خرجنا من هذه القرية المظلمة الظالم أهلها، وفارقنا هذه الدور الموحشة الداثرة، مهاجرين إلى الله ورسوله، وشملتنا العناية الأزلية بدرك الموت والفناء في ذاته وصفاته وأسمائه، فقد**

(١) الإمام الخميني، شرح دعاء السحر.

**وقع أجرنا على الله وشهدنا جماله وبهائه وسنائه، ثم أحيانا بالحياة الثانية وأبقانا ببقائه، ويحصل لنا العلم الشهودي والكشف الحقيقي بأن علمه بذاته هو العلم بكمالات ذاته ولوازم أسمائه وصفاته لا بعلم متأخر أو علم آخر بل بالعلم المتعلق بالذات في حضرة الذات**[1].

ومن البديهي أن العلم الشهودي، الذي هو مطالعة جمال الحق تعالى وسطوع أنواره، لا يبقي مكاناً للبراهين العقلية والجدل الكلامي. وذلك لان الاستدلال بالألفاظ والكلام هو في مقام التعلم والتعليم، ومقام الكشف والشهود لا ينسجم مع هذه البراهين العقلية والشفهية.

*****

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١١٩.

# الفصل الثالث

# المشيئة والإرادة

# المشيئة والإرادة

## الأعيان الثابتة

يعرف الإمام الراحل ﵀ (العين الثابتة) وفقاً لاصطلاح أهل الله، بالاتي : **(اعلم أن أرباب المعرفة وأصحاب القلوب يقولون ان لكل اسم من الأسماء الإلهية في الحضرة الواحدية صورة تابعة للتجلي بالفيض الأقدس في الحضرة العلمية، وذلك بواسطة الحب الذاتي وطلب مفاتيح الغيب التي لا يعلمها الا هو، وتسمى تلك الصورة باصطلاح أهل الله العين الثابتة ؛ وقد حصلت أولاً التعينات الاسمائية بالتجلي بالفيض الأقدس، وبنفس هذا التعين الاسمي، تحققت الصور الاسمائية التي هي الأعيان الثابتة)**[1].

على ضوء هذا، يلاحظ أن (الأعيان الثابتة) هي صور الأسماء الإلهية، ظهرت في الحضرة العلمية بواسطة التجلي بالفيض الأقدس. والأعيان الخارجية التي هي ظل الأعيان الثابتة، تطلب ظهور مفاتيح الغيب بواسطة الفيض المقدس في الحضرة العينية.

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٧٦ .

يقول الإمام الراحل ﷺ، حول الفيض الأقدس والفيض المقدس ومتعلقاتهما : **(والفيض الأقدس أشمل من الفيض المقدس، لتعلقه بالممكنات والممتنعات، فان الأعيان منها ممكن ومنا ممتنع، والممتنع منه فرضي كشريك الباري واجتماع النقيضين، ومنه حقيقي كصور الأسماء المستأثرة لنفسه)**[1].

ثم يستنتج الإمام ﷺ: **(فما كان قابلاً في الحضرة العلمية للوجود الخارجي تعلق به الفيض المقدس؛ وما لا يكون قابلاً لم يتعلق به، إما لعلو الممتنع وعدم دخوله تحت الاسم الظاهر، وإما لقصور وبطلان ذاته وعدم قابليته، فان القابل من حضرة الجمع . وعدم تعلق القدرة بالممتنعات العرفية والذوات الباطلة من جهة عدم قابليتها لا من جهة عدم القدرة عليها وعجز الفاعل عن إيجادها تعالى عن ذلك علواً كبيراً)**[2].

## الأعيان الثابتة ليست مجعولة بجعل جاعل

من هنا نستطيع أن نخرج بقاعدة وهي، أن قابلية الأعيان الثابتة لها دور المحدد والمعيّن في اكتساب الوجود من الفيض الأقدس. أي تقبل الفيض بحسب ما تقتضيه قابليتها. وبعبارة أخرى كل ما يقتضيه ذاتها يكون. بالتأكيد إن شيئية الأعيان الثابتة التي هي صور الأسماء الإلهية، تكون من الفيض الأقدس، وقبل التجلي الأول هي لاشيء محض، وبالتالي لا يكون لها اقتضاء، لأن الاقتضاء لا يكون من لا

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١١١.

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١١١.

شيء. لكن وبمجرد أن تتعين العين الثابتة بصور من الأسماء الإلهية، يظهر اقتضاء ذاتها الذي يكون متفرع على وجود شيئيتها . على سبيل المثال: العدد أربعة قبل وجوده هو لا شيء محض، وعندما يوجد يصير لديه لوازم واقتضاء متفرع على شيئيته، من قبيل أنه يقبل القسمة إلى نصفين متساويين وانه نصف العدد ثمانية.... فالعدد أربعة بهذه الأوصاف واللوازم هو في الخارج العدد أربعة.

وبالمحصلة إن قابلية (الأعيان الثابتة) ليست مجعولة بجعل جاعل حتى ترد هذه الإشكالية، انه لماذا جُعلت عين الانسان المهتدي مقتضية الهداية، بينما عين الانسان الضال مقتضية الضلالة؟ لأن الأعيان الثابتة هي صور الأسماء الإلهية ومظاهرها في الحضرة العلمية، والجعل والإيجاد غير متعلق بالأعيان أزلاً وابداً.

*****

## تفسير الآية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يستفاد من الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، أن الله تعالى لم يرد الهداية لكافة الناس. فحرف (لو) يدل على امتناع وصول الهداية الى جميع الناس. والدليل على هذا، أن الأعيان تتفاوت من حيث الاستعداد. وعلى صعيدي الهداية التكوينية والهداية التشريعية، يكون البعض قابلاً للهداية دون البعض الآخر. أي بالنسبة للهداية التكوينية كما أشرنا سابقاً فان بعض الأعيان لا تقتضي قابليتها الذاتية الهداية. أما بخصوص الهداية التشريعية التي ترتبط بالإنسان، فان أفعال البعض قد تستوجب الهداية، بينما تستوجب أفعال البعض الآخر الضلالة. لأن أفعال الإنسان الاختيارية هي التي تحدد هدايته أو ضلاله. ولو أن الله أراد هداية الناس أجمعين، لكان ذلك بمثابة إعمال الجبر من ناحية الله تعالى، ولطالت الإشكالات التي وردت على نظرية الجبريين الساحة الإلهية المقدسة. لأن معنى هذا الكلام أن الله تعالى يريد الهداية للجميع ، ولا دخالة لإرادة الموجودات في هذا المجال. وهذا يتنافى مع فلسفة إرسال الرسل، والأمر والنهي، والثواب والعقاب، القائمة على أساس اختيار الإنسان.

بناء عليه، حينما تكون إفاضة الهداية أو إعطاء الضلالة من مقتضى قابلية الأعيان، فان الله تعالى يجعل شؤون حكمته مطابقة لهذا الاقتضاء، اي يقتضي الهداية أو الضلالة. وكذلك قسم الدار الآخرة إلى الجنة والنار، وخلق أيضا آدم بيديه وهو مظهر صفات الله الجمالية والجلالية، كي يكون مدار الحكمة وفقاً لهذا الاقتضاء قائماً على أساس

أفعال العباد الاختيارية.

## القضاء والقدر

قد يرد الى الاذهان، أنه لو كان مدار الحكمة تابع لاقتضاء استعدادات الممكنات، فما هو تأثير القضاء والقدر الإلهيين في هذا المجال؟. ولتقريب المطلب أكثر، نقول:

(القدر) بسكون الدال يعني مطلق المقدار، وبفتحها المقدار المحدد. والآية الكريمة (إنا كل شيء خلقناه بقدر (تفيد المعنى الثاني. أما (القضاء) فهو حكم عام وكلي، وهو بمنزلة الخزانة، والقدر هو مصاديقه بالخارج.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وكما اشرنا سابقاً بالنسبة لعلم الحق تعالى، يمكن القول أن علم الحق الإجمالي مساوق للقضاء، وعلمه التفصيلي مساوق للقدر.

على سبيل المثال: خلق الله تعالى بعلمه البسيط الإجمالي زيد»، وتكون خصائص زيد التفصيلية علة تعيّن العلم الإلهي؛ لكن ولان علم الحق تعالى يتعلق بزيد أزلا، لا يكون مقتضى استعداد زيد وخصائصه خارجاً عن حيطة العلم الإلهي. لذا يكتب تفصيلاً ما سيحدث لزيد، ويبين أن زيد سيكون هكذا، وهذا ما يسمونه اصطلاحاً تقدير.

علم الله تعالى واحد وواحد التعلق، فالله عالم بجميع الكليات

والجزئيات أزلا وابداً. كما يطلق على تعلق علمه بوجود زيد قضاء، وعلى تعلق علمه بحالات وخصائص زيد القدر وعليه يكون القضاء الذي هو حكم عام وكلي تابع للقدر في الخارج، وكل ما يقتضيه القدر في الخارج،يعرض عليه سبب الحكم اللازوالحقي .

## المشيئة والإرادة

يوضح الإمام الراحل أولاً الصفات الذاتية والفعلية للحق تعالى، ومن ثم يشرع بتفسير مشيئة الحق وإرادته.

وهو يرى أن للأسماء والصفات الإلهية مقامين. الأول: مقام الأسماء والصفات الذاتية، حيث ثبت بالبرهان، أن الذات المقدسة لواجب الوجود، من حيثية واحدة وجهة بسيطة محضة، حاوية لكل الكمالات ومستجمعة لجميع الأسماء والصفات.

وجميع الكمالات، وأسماء وصفات الجمال والجلال ترجع إلى حيثية وجودية بسيطة، وكل ما عدا الوجود هو نقص وقصور وعدم. ولان ذاته المقدس هي صرف الوجود ووجود صرف، فهي صرف الكمال وكمال صرف. (علم كله، قدرة كله وحياة كله).

**والمقام الآخر، هو مقام الأسماء والصفات الفعلية، الذي هو مقام ظهور الأسماء والصفات الذاتية، ومرتبة تجلي الصفات الجلالية والجمالية. وهذا المقام، هو مقام (المعية القيومية) : ﴿وَهُوَ**

مَعَكُمْ ﴾[١] و﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[٢]ومقام وجه الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[٣] ومقام النورية:﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٤]ومقام المشيئة المطلقة:﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٥].

**خلق الله الأشياء بالمشيئة وخلق المشيئة بنفسها[٦] [٧].**

وفي سياق تمييزه بين صفات الله الذاتية وصفاته الفعلية، يعتبر الإمام ان المشيئة من صفات الحق الفعلية.

**ومقام المشيئة الفعلية المطلقة، لها إحاطة قيومية بجميع الموجودات الملكية والملكوتية، وجميع الموجودات هي تعيناتها من وجه، ومظاهرها من وجه آخر[٨].**

لذا يعتقد الإمامﷺ أن المشيئة الفعلية المطلقة مساوقة للوجود المنبسط، أو للوجود الفعلي، وهي أول صادر من مصدر الغيب، وسائر مراتب الوجود إنما وُجِدت بتوسطها. وكما أشرنا سابقاً، يستند الإمام في إثباته للموضوعات على الآيات والروايات الواردة عن

---

(١) سورة الحديد، ٤.
(٢) سورة المجادلة، ٧.
(٣) سورة البقرة، ١١٥.
(٤) سورة النور، ٣٥.
(٥) سورة الدهر، ٣٠.
(٦) أصول الكافي، كتاب التوحيد، ج١.
(٧) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٣٤.
(٨) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٣٤.

**الأئمة** المعصومين عليهم السلام. ففي باب المشيئة والإرادة، تناول الإمام **الحديث** الشريف الوارد عن الإمام الرضا عليه السلام، واستطاع بذوقه الرفيع ودقة ملاحظته، أن يسلط الضوء على مسائل مهمة وعميقة من المعارف الذوقية.

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: قال الله تعالى: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء؛ وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي. جعلناك سميعاً بصيراً قوياً؛ ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أنّي أولى بحسناتك منك؛ وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك بأنني لا أسال عما أفعل وهم يسألون[1].

ويعد فهم هذا الحديث مفتاحاً لفهم أمهات مطالب العلم الإلهي، والإمام الراحل ﷺ استطاع بعباراته السلسة وإشاراته اللطيفة أن يفسر هذا الحديث وأن يزيل الستار عن أسرار حقائقه للقلوب المستعدة. التي من جملتها ما يتعلق بالمشيئة والإرادة الإلهية، حيث يقول الإمام ﷺ بشأنها:

**(فليعلم بتوفيق الله أن سلسلة الوجود من عوالم الغيب والشهود من تعينات المشيئة ومظاهرها ونسبتها إلى جميعها نسبة واحدة، وان كانت نسبة المعيّنات إليها مختلفة)[2].**

---

(١) أصول الكافي، ج ١، كتاب التوحيد، باب المشيئة والارادة.

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ٩٨.

والمشيئة أولاً أحدية التعلق، كما قال الحق تعالى في الذكر الحكيم ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[1].

وثانياً هي تابعة لوجود المعلوم، أي ما لم يتحقق وجود المعلوم، من غير الممكن أن تتعلق به المشيئة. والامر الثالث أن وجود المعلوم يقبل المشيئة بما يقتضيه من حالات. فأحيانا يكون ذلك الاقتضاء هداية، وأحيانا أخرى ضلالة. لذا يلاحظ في الحديث الشريف: (**بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء**)، وعبارة أنت الذي تشاء هي نفسها اشارة الى وجود المعلوم الذي تتعلق به المشيئة؛ ووجود هذا المعلوم مرجح إلى أحد طرفين، إما أن يقتضي أداء الفرائض والطاعات، أو كفران النعمة والمعصية. وبما أن هذا الاقتضاء تابع لحالات وجود المعلوم، ووجود المعلوم هو بإيجاد من الله تعالى، فلوازمه وحالاته تكون أيضاً بالوجود عينه من الله تعالى، لذا هو يقوى على الطاعة وعلى المعصية بنفس تلك اللوازم، وهو ماتشير اليه الجملة التالية: (**بقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي**).

اذاً الله سبحانه وتعالى يريد لعبده فعل الهداية، كما يريد له الضلالة، وهذا هو معنى (تهدي من تشاء وتذل من تشاء) و(فعال لما يشاء)؛ لان المشيئة من الصفات الفعلية، ومنشأ تعينها اقتضاء حالات الموجودات وأفعالها، ومن جهة أخرى جميع الموجودات هي مظاهر وتعين مشيئة الحق.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

---

(١) سورة الجاثية، ٥٠.

**«أمر الله ولم يشاء وشاء ولم يأمر، أمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لا يسجد ولو شاء لسجد، ونهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشاء لم يأكل»**[1].

هذا الحديث الشريف يتوافق مع ما أشرنا اليه، فالله تعالى أمر آدم عليه السلام بالسجود لاقتضاء كمالاته، ولم يشأ أن يسجد إبليس لاقتضاء عناده وتكبره.

كذلك نهى الله آدم عليه السلام عن أكل الشجرة الممنوعة، لانه تعالى لا يأمر إلا بالخير، وإرادة الأكل كانت بمقتضى حالات آدم وحواء، اللذين أرادا الأكل من تلك الشجرة الممنوعة.

ففهم أسرار هذا البحث متوقف على فهم هذه المسألة، وهي أن المشيئة أمر نسبي تابع لوجود المعلوم. وإذا اتضحت للسالك حقيقة هذه القاعدة بالتوفيق الإلهي والكشف اليقيني، سوف يتلمس بحسب استعداده أسرار كلمات الأئمة الطاهرين عليهم السلام المتوجهة للقلوب الطاهرة والخالية من كل شائبة.

أما الإرادة فهي مقام ظهور وتجلي المشيئة، عندما تتوفر كافة الشروط المطلوبة لتحقق المشيئة، فإنها سوف تظهر، ولن يحول دون ظهورها وتجليها أي مانع. خصوصاً انه في الأمر التكويني ليس ثمة عصيان وعناد، بل كل شيء مسخر للحق تعالى. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ

---

(١) أصول الكافي، ج١، كتاب التوحيد، باب المشيئة والارادة،

أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١]،وعليه، تكون إرادة الله عين فعله.

أما في الأمر التشريعي، كما اشرنا سابقاً، فإن الأمر والنهي تابعان لاقتضاء حالات المأمور. ولو انهم نُهوا وأمروا بخلاف ما تقتضيه حالاتهم، فسيعملون وفقاً لاقتضاء حالاتهم. والحديث الذي مر سابقاً يشير الى نفس هذا المعنى.

أيضاً وردد في الذكر الحكيم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[٢].

## إشكال وجواب

لو أفترضنا أن مشيئة الحق وإرادته تكون في مقام الفعل وباعتبار التعينات، فهذا يعني أن الله تعالى فاقد للإرادة والمشيئة في الأزل.

يجيب الأمام الراحلﷺ على هذا الإشكال، قائلاً:

**«كما أن العلم له مراتب منها مفهوم مصدري ومنها عرض ومنها جوهر ومنها واجب قائم بذاته موجود لذاته كذلك الإرادة. وإما تخصيص المشيئة بأنها محدثة ومن صفات الفعل وتخصيص العلم والقدرة بأنهما قديمتان ومن صفات الذات مع أنهما من واد واحد بعض المراتب منها محدثة وبعضها قد يمة، فباعتبار فهم السائل والمخاطب»**[٣].

(١) سورة يس، ٨٢.

(٢) سورة الانعام، ٢٨.

(٣) الامام الخميني، دعاء السحر، ص ١٠٧.

على ضوء هذا يلاحظ أنه لا منافاة بين أن يكون لله إرادة هي عين ذاته وقديمة، وإرادة في مقام الفعل باعتبار التعينات هي حادثة وزائلة.

بالتأكيد إن هذا الإشكال أيضا يزول مع هذه القاعدة: **(إن للمشيئة والإرادة نسبتين تابعتين للعلم، تتعلقان بوجود المعلوم)**.

أي أن المشيئة والإرادة قديمتان كما العلم باعتبار مقامه الاطلاقي صفة قديمة، وباعتبار التعينات حادثتين تابعتين لوجود المعلوم . وعليه يزول الإبهام الذي يمكن أن يلف بعض الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، والتي من جملتها تلك الرواية الواردة في أصول الكافي نقلاً عن عاصم بن حميد من أنه سأل أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام : هل إرادة الله قديمة؟

أجاب الإمام عليه السلام : **«ان المريد لا يكون إلا لمراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد»** [1].

وكذلك قال الإمام الصادق عليه السلام:**(المشيئة محدثة )**.

ويتضح هنا أن المقصود هو الإرادة والمشيئة في مقام الظهور والفعل.

---

(١) أصول الكافي، ج١، كتاب التوحيد، باب الارادة.

## الفصل الرابع

# الجبر والتفويض

# الجبر والتفويض

يساهم البحث الآنف حول (المشيئة والإرادة )، في فهم قضية (الجبر والتفويض ) بنحو أفضل. ففي الواقع يمكننا فهم قضية (الجبر والتفويض) بعمق أكثر، من خلال إتباع نفس أسلوب البحث الذي كنا قد اعتمدناه سابقاً في تقرير مسألة المشيئة والإرادة. أساساً إن أسلوب الإمام الراحل‍ في طرح وبحث مثل هذه المسائل، يفضي إلى استخلاص جميع القضايا، من قبيل المشيئة والإرادة، الجبر والتفويض، والخير والشر، لأن أساس وأصل هذه المسائل يؤول الى مصدر واحد. ويستشف من الأحاديث الواردة عن الأئمة‍ والتي اختارها الإمام‍، أن هناك ارتباطاً واضحاً عند معالجة هذا النوع من المواضيع.

ونحن في هذا الفصل سنبين بداية معنى الجبر والتفويض ثم نشرع بالحديث عن حقيقة الأمر بين الأمرين المتسالم عليه عند أصحاب القلوب، مستعينين بكلمات الإمام الراحل‍، التي هي غذاء روح العاشقين.

## الجبر

يعتقد الجبريون أن لا مؤثر في عالم الوجود إلا الله تعالى؛ وأنه تعالى أجلّ من أن يكون له شريك في الخلق والإيجاد، فهو يفعل ما يريد، ويمضي كل ما تتعلق به مشيئته، ولا يوجد أي مانع يحول دون تحقق ما تتعلق به مشيئته، فلا يسأل عما يفعل، وإنما هم يسألون.

## التفويض

أما أتباع مذهب التفويض فهم يعتقدون أن الله خلق العباد وفوض اليهم بعض أفعالهم، وجعلهم مختارين. لذا هم مستقلون في إيجاد الأفعال الموافقة لإرادتهم ورغباتهم.

كما يعتقدون أن الله أراد من العباد فقط الإيمان والعبودية، وكره لهم الكفر والمعصية.

## معنى الأمر بين الأمرين

إن أتباع هذه النظرية هم الراسخون في العلم. وهم يعتقدون أن جميع الموجودات على رغم التفاوت الحاصل فيما بينها وبرغم تسلسلها الرتبي من حيث شرافة الوجود واختلافها في الذوات والأفعال والصفات والآثار، هم مجموعون في الحقيقة الإلهية الجامعة لجميع حقائقهم ودرجاتهم وطبقاتهم.

وبما أن هذه الحقيقة في غاية البساطة، فنورها يسطع على كل عالم الوجود، بحيث لا يوجد ذرة من ذرات عالم الوجود، إلا ونور

هذه الحقيقة محيط بها وقاهر لها، كما انها تحيط باعمال كل إنسان.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[1]

وتلاقي هذه النظرية قبولاً عند الفلاسفة والحكماء الإلهيين لما تتمتع به من صوابية وإحكام. كما أن الحكيم الملا صدرا استطاع بتبنيه لهذه النظرية أن يعالج الكثير من الإشكالات والشبهات التي طرحت حول مسألة (خلق الأعمال)، واعتبرها تتطابق تماماً مع كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لا جبر ولا تفويض، وإنما أمر بين أمرين**» .

وقد عقب على كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قائلاً :

**ليس مقصود الإمام، إن أفعال العباد مركبة من جبر واختيار، ولا أنها خالية من الجبر أو الاختيار، أو أن العبد له اختيار ناقص وجبر ناقص، أو انه من جهة مختار ومن جهة أخرى مجبور. أو كما جاء في عبارة الشيخ أبو علي، بأنه مضطر بهيئة الاختيار، وإنما مقصوده عليه السلام، انه من نفس الجهة التي هو فيها مختار هو مجبور، ومن نفس الجهة التي هو فيها مجبور هو مختار. يعني اختياره عين اضطراره**[2].

## كلام الإمام الخميني حول حقيقة الأمر بين الأمرين

يقول الإمام الراحل قدس سره بداية في معرض رده على نظريتي الجبر والتفويض، مستفيداً من أحاديث الأئمة عليهم السلام في هذا المجال، ومستلهماً الحقائق من نور الولاية:

**التفويضي أخرج الممكن عن حده إلى حدود الواجب بالذات**

(١) سورة الرعد، ٣٢.

(٢) صدر المتألهين الشيرازي، رسالة خلق الأعمال، ص ٦٩.

فهو مشرك، والجبري حط الواجب تعالى عن علو مقامه إلى حدود بقعة الإمكان فهو كافر. لقد سمى مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام القائل بالجبر كافراً والقائل بالتفويض مشركاً على رواية صدوق الطائفة كما عن عيونه، والأمر بين الأمرين هو الطريقة الوسطى التي للأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم وهي حفظ مقام الربوبية والحدود الإمكانية.

الجبري ظلم الواجب حقه بل والممكنات حقها، والتفويضي كذلك، والقائل بالأمر بين الأمرين أعطى كل ذي حق حقه. الجبري عينه اليمنى عمياء فسرى عماه إلى اليسرى والتفويضي عينه اليسرى عمياء فسرى منها إلى اليمنى والقائل بين المنزلتين ذو العينين.

الجبري مجوس هذه الأمة حيث نسب الخسائس والنقائص إلى الله تعالى والتفويضي يهود هذه الأمة حيث جعل يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان والقائل بين الأمرين على الحنفية الإسلامية[1].

يتابع الإمام قدس سره كلامه لإثبات حقيقة الأمر بين الأمرين، بعد أن بين الإشكالات الأساسية التي ترد على مذهبي الجبر والتفويض:

انه بعد ما علم أن التفويض وهو استقلال الممكن في الإيجاد والفاعلية، والجبر وهو سلب التأثير عن الوجود ومزاولته تعالى للأفعال والآثار مباشرة وبلا وسط مستحيلان. إتضح سبيل الأمر بين الأمرين وهو كون الموجودات الإمكانية مؤثرات لكن لا

(١) الامام الخميني، رسالة الطلب والارادة، ص ٧٢.

بالاستقلال وفيها الفاعلية والعلية والتأثير لكن من غير استقلال واستبداد.

وليس في دار التحقق فاعل مستقل سوى الله تعالى، وسائر الموجودات كما أنها موجودات لا بالاستقلال بل روابط محضة ووجودها عين الفقر والتعلق ومحض الربط والفاقة، تكون في الصفات والآثار والأفعال كذلك، فمع أنها ذات صفات وآثار وأفعال لم تكن مستقلات في شيء منها كما تقدم برهانه، فمن عرف حقيقة كون الممكن ربطاً محضاً عرف أن فعله مع كونه فعله فعل الله، فالعالم بما انه ربط صرف وتعلق محض، ظهور قدرة الله وإرادته وعلمه وفعله، وهذا عين المنزلة بين المنزلتين والأمر بين الأمرين.

ولعله إليه أشار في قوله وهو الحق ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] حيث اثبت الرمي من حيث نفاه فقال رميت وما رميت، فان الرمي كونه منه لم يكن بقوته واستقلاله بل بقوة الله وحوله. وقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] فأثبت المشيئة لله من حيث كونها لهم لا بأن يكون المؤثر شيئين أو فعلين بالاشتراك، بل إن مشيئة الممكن ظهور مشيئة الله تعالى وعين الربط والتعلق بها[3].

ولأجل تقريب الموضوع أكثر إلى الأذهان، يذكر الإمام الراحل ﷺ هنا عدة أمثلة، من جملتها قوى النفس، فيقول:

(١) سورة الانفال، ١٧٠.

(٢) سورة الدهر، ٣٠.

(٣) الامام الخميني، رسالة الطلب والارادة، ص ٧٣.

فانظر الى قوى النفس المنبثة في تلك الصيصية البدنية في غيبها، فإنها بما هي متعلقات بذات النفس وروابط محضة بها، فيكون فعلها فعل النفس بل هي ظهورها وأسمائها وصفاتها. فمع صحة نسبة الرؤية إلى البصر والسماع إلى السمع وهكذا...، تصح نسبتها إلى النفس أيضاً. فبالسمع تسمع وبالبصر تبصر ولا يصح سلب الانتساب عن القوى ولا عن النفس لكونها روابطها وظهورها.

وليعلم أن فناء نور الوجود في نور الأنوار أشد من فناء قوى النفس فيها بما لا نسبة بينهما. لأن النفس بما أنها موجودة، متعينة، ذات ماهية وحد والماهية من ذاتها التباين والغيرية، لذا تصح الغيرية والتباين مع قواها، ومع ذلك تكون النسبة إليها حقيقة لأجل الحظ الوجودي الذي لهما، فكيف بموجود بريء من جهات النقص والتعين ومنزه عن الماهية ولوازمها ومقدس عن شوائب الكثرة ومصححات الغيرية والتضاد والتباين[1].

ويستند الإمام الراحل قدس سره هنا الى جملة من الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن الأئمة المعصومين، منها الحديث المشهور عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما، فيها الحق التي بينهما لا يعلمها الا العالم أو من علّمها إياه العالم»[2].

---

(١) الامام الخميني، رسالة الطلب والارادة، ص ٨٢.

(٢) أصول الكافي، التوحيد، باب الجبر والتفويض.

## لطيفة قرآنية

يرى الإمام الراحل ﷺ انه بالرجوع إلى هذا الحديث وأمثاله، يمكن فهم المنزلة الواقعة بين الجبر والتفويض، إي حقيقة الأمر بين الأمرين. فبرغم البيان الحسن والجيد لأدلة الفلاسفة والراسخين في العلم، إلا أن فهم تلك المنزلة التي أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام صاحب الولاية المطلقة، يبقى المفتاح الأساس لكشف الأسرار الخافية في مسألة الجبر والتفويض. وأصحاب القلوب المتنورة بنور القرآن، والمطهرون من الرذائل، هم فقط من يمكنهم الظفر بهذه المنزلة، ويحصل لهم الفتح:

**وأنت إذا كنت ذا قلب متنور بنور فهم القرآن بعد تطهيره من أرجاس التعلق بالطبيعة، فانه قرآن كريم وكتاب مكنون في لوح محفوظ لا يمسه إلا المطهرون، لوجدت هذه اللطيفة في آيات لا يمسها العامة[1].**

لقد برزت نقطة التحول في المباحث التي أثير حولها نقاشات حادة بين الفلاسفة وكبار العلماء الماضيين، عندما طرحت مسألة المكاشفة بعد المشاهدة، على حسب تعبير الإمام. وهو امر لا يحصل إلا من خلال اشعار القلب التقوى الكاملة، وتطهير العقل والقلب بواسطة عشق الله.

وإلا فإنه كلما أضفنا برهاناً آخراً على البراهين العقلية والكلامية التي بحوزتنا، فلن يكون ذلك الا تطويلاً للكلام وتحريراً للأوراق ومضعية لوقت الطالبين والباحثين. وهذا السر الكبير يمد السالك بنور العرفان

(١) الامام الخميني، رسالة الطلب والارادة، ص ٨٤.

ليتمكن من حل الكثير من معضلات أهل البرهان. ولهذا يرى الإمام الراحل ﷺ أن مشرب العرفاء الشامخين البعيد عن الجدل والمناقشات أكثر اتقاناً وصوابية، بل يرى طريقة الكشف النابعة من مصدر الولاية أفضل من جميع الطرق والمشارب.

**غير أن العلماء رضوان الله عليهم قد اختلفوا في معنى الأمر بين الأمرين اختلافاً عظيماً، والقول السديد المتقن، الذي يكون أبعد عن المناقشات وأقرب إلى التوحيد، هو رأي العرفاء الشامخين وأصحاب القلوب. ولكن مسلك العرفاء في كل موضوع من المعارف الإلهية من قبيل (السهل الممتنع) حيث لا يمكن فهمه على أساس البحث والبرهان، ولا يمكن استيعابه من دون التقوى القلبية التامة والتوفيق الإلهي**[1].

جدير بالذكر انه لا يمكن لكل كشف أن يؤدي إلى المعرفة التامة. بل الارتباط بمنبع الولاية المطلقة والتنور بنورها الحق هو من شأنه فقط أن يضمن لنا صحة الكشف، بل أن يمنحنا أيضا معاينة مقام المنزلة بين المنزلتين (الجبر والتفويض).

من هنا نحن نعتقد أن الجبر والتفويض العرفاني هو من نوع آخر، حيث استطاع الامام الراحل ﷺ أن يكشف عنه وفقاً لمشرب أصحاب القلوب. فبتقواه القلبية العالية والتوفيق الإلهي تمكن من اظهارهما في قالب قرب النوافل والفرائض.

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، حديث الخير والشر.

## الجبر والتفويض العرفاني

من المعارف الذوقية واللطيفة الجبر والتفويض العرفاني، فعندما يتعرف العارف على هذه الحقيقة تغمره لذة دائمة. وهو مايتطلب شهود المنزلة التي تحدث عنها الإمام الصادق عليه السلام في أكثر من موضع.

سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ أجاب عليه السلام: لا. فقال الرجل: ففوض إليهم الأمر؟ أجاب الإمام عليه السلام: لا. فسأل الرجل: فماذا؟ أجاب الإمام: لطف من ربك بين ذلك[1].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: **«لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما، فيها الحق التي بينهما لا يعلمها إلا العالم أو من علمها إياه العالم»**.

في الحقيقة يحمل كلام الإمام عليه السلام في طياته أسرار خطاب المعشوق، وأحاجي العشق، بحيث يمكن لكل عارف وسالك متأوه أن يشاهدها ويسمعها بحسب قوة عشقه. كما أن المعرفة العرفانية بتمام عظمتها تضمنتها هذه العبارات، فهي تجعل السالك في سير دائم لا قرار له. فالسالك لا يرى قط في مهد البراهين الفلسفية متكئاً يمنحه السكينة والاستقرار، بل هو في حركة وتكامل مستمر، إلى أن تتجلى المعاني الغيبية والأسرار السارية في كلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام على روحه وقلبه.

والإمام الخميني قدس سره بلغ أوج عظمته في كشفه عن هذا الوادي

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب الجبر والقدر.

المقدس، فهو لم يفرح بواردات عالم الخيال التي غدت مبلغ آمال أغلب العرفاء والسالكين، بل مضى يعبر بعشق وديان السير والسلوك المليئة بالصعاب، حتى نهل في نهاية المطاف من كوثر الولاية ماء الحياة والبصيرة النافذة، وأصبحت روحه الجياشة نبعاً يروي ظمأ عطاشى المعرفة، كما انه استطاع ببركة ما أسسه أن يبعث الروح مجدداً في البناء المعرفي لأصحاب القلوب. وفي هذا الخضم نالت مسألة الجبر والتفويض حظها.

كما أن الإمام ﷺ لم يكن همه فقط الوصول الى المقامات المعنوية التي بلغها، بل انه ربط شيعة أهل بيت العصمة والطهارة بالولاية لكي يتثنى لهم فهم أسرار الوجود، وغيّر وجهة قلوبهم إلى الأفق المبين.

## قرب النوافل وقرب الفرائض

بحث الإمام الراحل ﷺ ناهلاً من مشكاة الولاية معضلة حقيقة الأمر بين الأمرين، على ضوء ما يسمى (بقرب النوافل وقرب الفرائض).

ولقد استطاع بإشاراته الذوقية أن يبعث الحياة مجدداً في الأرواح وفي قلوب الأشباح، وأن يرشد السالكين من خلال مقامي محو النوافل وصحو الفرائض إلى المنزلة الحقة الواقعة بين الجبر والتفويض.

وبعد أن يطأ الإنسان برجله على هامة إنيته وأنانيته، ويخرج من بيت النفس المظلم ويتجاوز المنازل ومراحل التعينات أثناء بحثه عن مقصده الأصلي وطلبه لله سبحانه ويطأ بقدميه على كل ذلك،

ويخرق الحجب الظلمانية والنورانية، ويقطع آماله من كل الموجودات والكائنات، ويحطم الأصنام من كعبة قلبه بقوة ولايته، وتغيب الكواكب والأقمار والشموس من أفق قلبه ويغدو قلبه إلهياً ذا وجه واحد وجهة واحدة من دون أن يعكر صفوها التعلق بالغير، ويرقى إلى ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1]، ويفنى في الأسماء والذات والأفعال،واذا اجتاز السالك هذه المراحل فإنه ينسلخ عن نفسه ويحصل له المحو الكلي والصعق المطلق، ويصبح الحق فاعلاً في وجوده.

فيسمع بسمع الحق ويبصر بعين الحق ويبطش بيد الحق وينطق بلسان الحق، يرى الحق ولا يرى غيره، وينطق بالحق دون غيره، فيكون تجاه غير الحق أعمى وأصم وأبكم، وتجاه الحق بصيراً وسميعاً وناطقاً.

ولا يحصل هذا المقام إلا بالجذبة الربوبية وجذوة نار العشق، و السالك لا يزال يتقرب بهما إلى الحق، وتتملكه الجذبة الربوبية التي تحصل اثر حب الذات المقدس، كي لا ينزلق في وادي الحيرة ولا يبتلى بالشطحات وغيرها التي هي من رواسب الأنانية. ولقد اشير إلى هذين الأمرين في قوله **«وإنه يتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه»** فتقرب العبد إلى الله هو من آثار جذوة العشق، والجذبة الإلهية للحق هي من آثار هذا الحب.

إذا قرب النوافل يوجب الفناء الكلي والاضمحلال المطلق ؛ فتكون نتيجته: **«كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**

(١) سورة الانعام، ٨٠.

**ويده التي يبطش بها»**[١].

على ضوء هذا يحصل للسالك الفناء التام في قرب النوافل، ويكون الإنسان الكامل التجلي الأتم للحق فيخاطبه الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٢] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٣]، و﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤].

وعندما يحدث للإنسان الكامل المحو الكلي والصعق المطلق، يرى الله في كل شؤونه، ومن جملتها الاختيار، فيسلب الاختيار عن نفسه. ومن خلال شعار «**أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد**» ينال مقام قرب النوافل. فهو لا يرى أحداً أفضل من الله ليكون صاحب الاختيار، وبالأساس هو يخجل أن يعتبر نفسه صاحبة الاختيار في مقابل الله. وحالة السالك هذه هي ليست جبراً وإنما أعلى من الاختيار، بحيث يعتبر فهمها من الأسرار الخافية.

وهنا يطرح سؤال؛ ان السالك هل بعلمه واختياره يفنى في الحق؟ وإذا كان كذلك، فهذا يعني بقاء أنانيته، وما دامت أنانية السالك باقية فلا يحصل له الفناء التام!.

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: ليس الفناء التام الحاصل في مرتبة قرب النوافل بمثابة سلب العلم والاختيار عن السالك،

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص٦٢٥.
(٢) سورة الانفال، ١٧.
(٣) سورة الفتح، ١٠.
(٤) سورة الدهر، ٣٠.

وإنما يعني خلع ثوب الجسمانية وخرق الحجب الظلمانية والنورية، والسالك انما يقوم بهذا العمل باختيار ووعي كامل. وفي الواقع يحصل الاضمحلال المطلق والمحو الكلي للسالك من الجهة الخلقية وليس من ناحية يلي الربي.

ويأتي بعد قرب النوافل (المحو) قرب الفرائض (الصحو)، حيث يقول الإمام ﷺ في هذا المجال:

**«بعد أن يتحقق الصحو بعد المحو، يصبح وجوده وجوداً حقانياً، والحق تعالى يشاهد في مرآة جماله الموجودات الاخرى، بل يصبح متحداً مع المشيئة، وبخصوص الإنسان الكامل يصبح متحداً مع المشيئة المطلقة، وتغدو روحانيته عين مقام الظهور الفعلي للحق. وفي هذه الحالة يرى الحق تعالى به، ويسمع ويبطش، ويصير هو الإرادة النافذة للحق، ومشيئته الكاملة، وعلمه الفعلي» فالحق يسمع به ويبصر به»**[1].

على ضوء هذا يلاحظ أن الإنسان الكامل في مقام قرب الفرائض يصبح مقامه مقام الظهور الفعلي للحق. لهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: يقول أمير المؤمنين: **(أنا علم الله، وأنا قلب الله الواعي، ولسان الله الناطق، وعين الله، وجنب الله، وأنا يد الله)**[2].

وهذه هي حقيقة خلافة آدم باعتباره مظهر الانسان الكامل في

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ٦٢٦.

(٢) توحيد الصدوق، ص ١٦٤، باب ٢٢، في معنى جنب الله.

القرآن، إي ان الإنسان الكامل في مقام قرب الفرائض يصبح خليفة الله ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

ولا يكون الإنفاق والتصرف في ملك المستخلف إلا عن طريق الخلافة التي حقيقتها قرب الفرائض.

وبناء عليه، في قرب النوافل، يصبح الإنسان ملك الحق تعالى، بينما في قرب الفرائض يصبح الإنسان خليفة متصرفاً في ملك الله تعالى. ولهذا السبب يقول ابو يزيد البسطامي:

**(الهي ملكي أعظم من ملكك لكونك لي وانا لك، فانا ملكك وأنت ملكي وأنت العظيم الأعظم وملكي أنت، فأنت أعظم من ملكك وهو أنا )**[1].

فإدراك حقيقة الأمر بين الأمرين، وبحسب تعبير الإمام قدس سره الاتحاد مع مشيئة الحق تعالى، هي في عين دقتها تتمتع بإعجاز خاص.

والسالك ما لم يتحقق بمقامي قرب النوافل والفرائض بشكل كامل، فسوف ينزلق في وادي الحيرة وسوف يبتلى بالشطح ونظائره. لذا يعتبر الإمام الراحل فهم حقيقة الأمر بين الأمرين غير ميسر إلا لأولياء الله:

**(ان فهم هذه الحقيقة ودرك سرها وحقيقتها لا يتيسر إلا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فانه يرى بعين البصيرة**

---

(١) شرح فصوص الحكم، الخوارزمي، ص ١٨٦.

**والتحقيق بلا غشاوة التقليد وحجاب العصبية أن كل موجود من الموجودات بذواتها وقواها الباطنية هي من شؤون الحق وأطواره وظهوره وتجلياته)**[١].

وهذا المقام مختص بمن وصل إلى قرب الفرائض (الصحو)، إي الرجوع إلى الكثرة في عين الوحدة. والصحو هو عين» القرب»، فكل شيء في ظهوره هو مرآة الحق. فالسالك هنا يرى نفسه في ملك الله تعالى، ويرى ملك الله تحت تصرفه، وفي الوقت نفسه لا يرى إلا الله. وهذه الحالة بعيدة المنال عن طريق البراهين الفلسفية والكلامية، من قبيل مسألة الجبر والتفويض. فكيف لهم أن يعملوا فكرهم لإظهار حقيقتها؟!.

وفي نهاية المطاف يقول الإمام حول هذه الحالة التي هي كشف خزانة الأسرار وكنز معارف الأبرار.

**((يجب أن يعلم أن هذا الصحو بعد المحو والعود إلى عالم الكثرة يسمى بالقرب، لأن هذا الصحو بعد المحو يختلف عن حالة الغفلة التي نعيشها، وأن الوقوع في عالم الكثرة بعد المحو يغاير عالم كثرتنا الذي نعيش فيه، لأن هذه الكثرة تكون بالنسبة لنا حجاباً عن وجه الحق، وبالنسبة لهم مرآة المشاهدة. (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وفيه وقبله وبعده))**[٢].

---

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١٠٤.

(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٢٦.

وخلاصة الكلام أن الشرط الأساس لفهم حقيقة الأمر بين الأمرين، هو في مشاهدة الحق تعالى في الأشياء من دون حجاب، وهذا غير ميسر إلا في حال اتحد السالك الواصل مع المشيئة المطلقة، بعد أن ينال مقام قرب النوافل والفرائض.

وذلك حتى لا يبتلى السالك في رجوعه إلى عالم الكثرة بالحجب والحيرة وتسلط الخيال والأوهام.

## الخير والشر

استناداً لما مر سابقاً يتضح لنا جلياً مفهوم الخير والشر. فالخير من مقولة الكمال والجمال، ومن خلال الرجوع الى آيات الذكر الحكيم نرى أن كل ما هو خير وكمال وفيه سعادة فهو من الله، وكل ما هو نقص وشر يعود الى أصحاب تلك الآثار.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1].

يقول الإمام الراحل ﷺ:

**(لما كان الحق عز وجل كمال صرف وخير محض وعين الجمال والبهاء، كان كل ما يصدر من ناحيته المقدسة كمال وخير. بل إن نظام الوجود وحقيقة الوجود، في عالمي الغيب والشهادة، هو عين الكمال وأصل الجمال. وما هو نقص ورذيلة وشر ووبال يرجع إلى العدم والتعين وهو من لوازم الماهية، وهو غير مجعول ومفاض من**

---

(١) سورة النساء، ٧٩.

**الحق تعالى. فكل ما هو خير وكمال وحسن فمن الحق، وكل ما هو نقص وشر ومعصية فمن الخلق)**[١].

## الشرور غير مجعولة بالذات

من الأقوال الشهيرة أن كل من الخير والشر مجعول بالذات. ويستدل أصحاب هذا الرأي على كلامهم بجملة من الآيات والأحاديث منها:

ما ورد في الذكر الحكيم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٢].

ولقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه، ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ومن كذب على الله أدخله الله النار»**[٣].

يعتقد البعض أن السعادة والشقاء ليستا متعلقتين بجعل الجاعل، وإنما نابعتين من ذاتية الأشياء. فالقصور الذاتي أو الكمال الذاتي للأشياء هو مبدأ الخير أو الشر الذي تتصف به الأفعال. ويقول الإمام الراحل في معرض رده على هذا الكلام:

**(وما هو معروف أن السعادة والشقاء لا يكونان مجعولين**

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٣٦.

(٢) سورة النساء، ٧٨.

(٣) أصول الكافي، باب التوحيد، باب الجبر والتفويض.

بجعل الجاعل، بل إنهما ذاتيين للأشياء، فلا أساس له بالنسبة إلى السعادة، لأنها مجعولة ومفاضة من قبل الحق تعالى إذ أن كل ذات من الذوات أو ماهية من الماهيات لا يكون سعيداً بل هو هلاك محض.

وأما بالنسبة إلى الشقاء، فلان الشقاء التام راجع الى الماهية وهي غير مجعولة لأنها دون مرتبة الجعل فلا يتعلق بها الجعل )[1].

ويتابع الإمام كلامه في خصوص نسبة الخير والشر إلى الحق تعالى، واثبات أن الخيرات من الله، وتأويل الآيات والأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع:

(أما بيان أولوية الحق سبحانه في الخير من عباده ومن نسبتها إليهم، فلأجل أن نسبة الخير إلى مبدأ المبادئ هي نسبة وجودية وبالذات، ولأن الخير ذاتي الوجود وهو في الواجب عين الذات وفي الممكن بالجعل والإفاضة، فيكون أصل إفاضة الخير من الواجب تعالى ولكن مرآة ظهوره ومظهره يكون الممكن. ومن هنا تكون النسبة إلى الظاهر والمفيض أتم من النسبة إلى المظهر والقابل.

وأما في السيئات والشرور فيكون الأمر معكوساً رغم صحة انتسابها إلى الطرفين لان ما يفاض من الحق يكون خيراً ولكن يلازمه تخلل الشر على أساس الانجرار والتبعية. فتكون نسبة الشر إلى الحق بالعرض والى الماهية بالذات لنقصانها وقصورها. وقد أشارت

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٣٧.

**الآية الكريمة إلى هاتين النسبتين. فعندما تغلب الوحدة وتتلاشى الكثرات والنقائص يقول سبحانه ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[١]، وعند تلاحظ الكثرات بالعرض وتقرر الوسائط يقول عز وجل ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[٢][٣].**

كم هو جميل حقاً منهج الإمام الراحل‌ﷺ، لقد استطاع أن يعالج أعقد المسائل الكلامية والفلسفية مستفيداً من الحكمة والبرهان والذوق العرفاني. وأن يظهر قوة ومقدرة الفكر العرفاني النابع من الولاية في حل الكثير من شبهات المتكلمين في أبواب المعارف الإلهية المتفرقة. ولهذا نقول إن انتخاب أربعون حديثاً من قبل الإمام‌ﷺ وشرحهم مفصلاً وفقاً للمشارب المختلفة، يبين أولا الطريق الصحيح للسير والسلوك، ويفتح أربعين منزلاً من المنازل. ثانياً يطرح أربعين مسألة معرفية في غاية الأهمية ويعالجها وفق المشرب العرفاني. وثالثاً يوجد رابطة بين المعرفة الحقيقية والولاية المحمدية والعلوية. فالإمام‌ﷺ يعتبر أن كمال المعرفة لا يكون الا في ظل ولاية الأئمة الطاهرين‌عليهم السلام.

*****

(١) سورة النساء، ٧٨.

(٢) سورة النساء، ٧٩.

(٣) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٣٧.

## الفصل الخامس

# اعرفوا اللّه باللّه

# اعرفوا الله بالله

ينقل الإمام الصادق عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

**«اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الامر بالامر بالمعروف والعدل والاحسان»**[1].

فتح الامام الراحل قدس سره باباً جديداً في عالم المعرفة والعرفان، منطلقاً من مشربه الحكميّ وقدرته على سبر اغوار احاديث الائمة عليهم السلام.

(لقد أوجد سلسلة جديدة في حلقة المعرفة الشهودي)ة، كان من جملتها اضاءاته اللطيفة حول حقيقة معرفة الله.

لقد كان دأب الامام قدس سره في كتابه (الاربعون حديثاً)، ان يعرض اولاً باختصار آراء بعض العلماء الكبار في المجال المختص، ومن ثم يبين معتقده بإعجاز بالغ يبهر العقول.

## ثقة الإسلام الكليني

يقول المرحوم الكليني في ذيل الحديث الوارد اعلاه:

---

(١) أصول الكافي، ج١، باب التوحيد، انه لا يعرف الا به.

**«اعرفوا الله بالله، يعني أن الله خلق الاشخاص والانوار والجواهر والاعيان، فالاعيان: الابدان، والجواهر: الارواح، وهو جلّ وعزّ لا يشبه جسماً ولا روحاً، وليس لاحد في خلق الروح الحساس الدراك أمر ولا سبب، هو المتفرد بخلق الارواح والاجسام فاذا نفى عنه الشبهين : شبه الابدان وشبه الارواح فقد عرف الله بالله وإذا شبهه بالروح أو البدن او النور فلم يعرف الله بالله»[1].**

## صدر المتألهين

يقول الملا صدر المتألهين في تفسيره للحديث اعلاه:

**«هناك سبيلان لمعرفة الله: احدهما من خلال المشاهدة والعرفان الصريح؛ وثانيهما من خلال التنزيه والتقديس. ولتعذر السبيل الاول، الا على الانبياء والكمل. نختار بيان السبيل الثاني».**

## الشيخ الصدوق

يقول الشيخ الصدوق في معنى (اعرفوا الله بالله):

**«إن نتعرف على الحق من خلال عقولنا، فالله تعالى قد وهبنا اياها، واذا تعرفنا عليه من خلال الانبياء والحجج ﵈، فالحق تعالى قد أرسلهم وجعلهم حجة علينا، واذا تعرفنا عليه من خلال أنفسنا، فالله قد خلقها»[2].**

---

(١) ن.م

(٢) الشيخ صدوق، التوحيد، الباب ٤١، ص ٢٩٠.

## المرحوم الفيض الكاشاني

يفسر المرحوم الفيض الكاشاني هذا الحديث قائلاً:

**(لكل موجود ماهية ووجود، وماهية الأشياء عبارة عن تعيناتها النفسية ووجهتها الذاتية؛ ووجودها عبارة عن جهة يلي الربي التي بها قوام الذات وظهور آثار الأشياء وحولها وقوتها.**

**فإذا نظر المرء إلى الماهيات وجهات تعينات الأشياء وأراد أن يعرف الحق من جهة إمكانها وافتقارها إلى الحق، يكون قد عرف الحق بالأشياء وليس بالحق؛ إضافة إلى ذلك إن هذا العلم هو معرفة فطرية وليست كسبية.**

**أما لو نظر إلى الجهات الوجودية، التي وجهتها الى الله وجهات يلي الله، والتي قد أشير إليها في الآيات الشريفة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وأيضا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، فسيعرف الحق، وسيكون قد عرف الحق بالحق.**

## الإمام الخميني

يعتقد الإمام الراحل﷫ أن لذات الحق المقدسة اعتبارات، وأن لكل اعتبار اصطلاح خاص به:

**(منها: اعتبار الذات من حيث هي. وبحسب هذا الاعتبار، تكون الذات مجهولة بصورة مطلقة، وليس لها اسم او رسم، وهي بعيدة عن منال آمال العرفاء وآماني أصحاب القلوب.**

وقد يعبر عنها حيناً آخر لدى أهل المعرفة (بعنقاء المغرب).

يقول الشاعر: (أيها الصياد انتبه بأن العنقاء لا يسقط في الفخ فاسحب مصيدتك) وحيناً آخر بالعماء أو العمى، فقد روي أنه قيل للنبي ﷺ: (أين كان ربك قبل أن يخلق الخلق؟ قال: في عماء. وحيناً ثالثاً بغيب الغيوب) والغيب المطلق وغير ذلك، ولو أن كل هذه التعابير والمصطلحات هي قاصرة عن أداء المعنى. والعنقاء والعماء والتعابير الأخرى الواردة عن العرفاء الموافقة لنمط من الأدلة والبراهين، لا تتعلق بهذا المقام.

ومنها: اعتبار الذات بحسب مقام التعين الغيبي، وعدم الظهور المطلق، المسمى بمقام الاحدية.

وأكثر تلك التعابير تتلاءم مع هذا المقام. والمعتبر في هذا المقام الأسماء الذاتية، بحسب اصطلاح علماء الأسماء؛ من قبيل: الباطن المطلق، الأول المطلق، العلي، العظيم. كذلك يستفاد من الحديث الذي رواه الكافي إن أول ما اتخذه الحق لنفسه هو اسمي العلي والعظيم.

ومنها: اعتبار الذات بحسب مقام الواحدية، وجمع الأسماء والصفات. الذي يعبر عنه بمقام الواحدية ومقام أحدية جمع الأسماء وجمع الجمع وغيرها. ويقال لهذا المقام باعتبار أحدية الجمع، مقام الاسم الأعظم والاسم الجامع (الله).

ومنها: اعتبار الذات بحسب مرتبة التجلي بالفيض المقدس ومقام ظهور الأسماء والصفات في مرائي الأعيان، كما أن مقام الواحدية يكون من تجلي الفيض الأقدس. وأيضا يقال لمقام ظهور الأسماء، مقام الظهور الاطلاقي ومقام الإلوهية ومقام الله. وذلك بحسب الاعتبارات المقررة في الأسماء والصفات[1].

ويتحدث الإمام الراحلﷺ عن اعتبار الذات بحسب مرتبة التجلي في كتاب مصباح الهداية بمزيد من التفصيل، فيقول:

(أول من فلق صبح الأزل وتجلّى على الآخر بعد الأول وخرق الأستار الأولى هو المشيئة المطلقة والظهور الغير المتعين التي يعبّر عنها تارة بالفيض المقدس لتقدسها عن الإمكان ولواحقه والكثرة وتوابعها، وأخرى بالوجود المنبسط لانبساطها على هياكل سموات الأرواح وأراضي الأشباح، وثالثة بالنفس الرحماني والنفخ الربوبي وبمقام الرحمانية والرحيمية وبمقام القيومية وبحضرة العماء بالحجاب الأقرب وبالهيولى الأولى وبالبرزخية الكبرى وبمقام التدلي وبمقام أو أدنى وإن كان ذلك المقام عندنا غيرها بل ذاك ليس بمقام أصلا وبمقام المحمدية والعلوية كل على حسب مقام ومورد)[2].

وبعد سرد الإمام لهذه المقدمة يقول:

(مادام الإنسان يلجأ إلى إعمال الفكر والبرهان في طلب الحق

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٦٥

(٢) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ٤٥.

وأثناء سيره إلى الله، فسيره يكون سيراً عقلياً وعلمياً، وهو ليس من أهل المعرفة والعرفاء، بل هو واقع في الحجاب الأعظم والأكبر، سواء كان ينظر إلى الأشياء بماهياتها، ويطلب الحق من خلالها، وهي تعتبر حجب ظلمانية؛ أو انه يطلب الحق من خلال وجوداتها، والتي تكون حجباً نورانية.

إن الشرط الأول في السير إلى الله، هو الخروج من بيت النفس المظلم وترك الذات والأنانية؛ فكما أن الإنسان في السفر الخارجي المحسوس، لا يكون مسافراً ما دام في منزله ولم يغادر مكانه رغم ظنه انه مسافر وتصريحه بذلك. وكما أن السفر الشرعي لا يتحقق إلا بعد مغادرة البلد واختفاء آثاره. فكذلك لا يتحقق هذا السفر العرفاني إلى الله والهجرة الشهودية، الا بعد التخلي عن البيت المظلم للنفس واختفاء آثاره ومعالمه. لأنه مادامت آثار التعينات مشهودة وأصوات الكثرات مسموعة، لا يكون الإنسان مسافراً، وإن ظن انه مسافر وادعى السير والسلوك إلى الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1][2].

## السفر شرط لحصول التجلي

بعد ان يغادر السالك الى الله بيت النفس، على إثر الرياضة الشرعية والتقوى الكاملة، ويقطع كل العلائق والتعينات، وبعد

---

(١) سورة النساء، ١٠٠.

(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٦٧.

ان يتحقق السفر الى الله، يتجلى له الحق المتعالي قبل كل شيء على قلبه المقدس بالألوهية ومقام ظهور الأسماء والصفات. وهذا التجلي يتبع ترتيباً معيناً بحيث يبدأ من الأسماء المحاطة مروراً بالأسماء المحيطة بحسب شدة وضعف السير وقوة قلب السالك وضعفه، إلى أن يصل إلى مرحلة ترك كل تعينات عالم الوجود، سواء كانت تعينات تعود إلى نفسه أو إلى غيره، والتي تعتبر في المنازل والمراحل التالية من التعينات العائدة الى نفسه أيضاً. وبعد مرحلة الترك المطلق يتم التجلي بالإلوهية ومقام الله، الذي هو مقام أحدية جمع ظهور الأسماء، وتظهر حقيقة (اعرفوا الله بالله) بمرتبتها الأولية النازلة .

وبمجرد وصول العارف الى هذا المقام والمنزل، يفنى في هذا التجلي. واذا وسعته العناية الازلية، يحصل له أنس وتزول عنه وحشة الطريق وتعب السير، ويصحو فلا يقنع بهذا المقام، ويبدأ السير بقدم العشق.

ويكون الحق في هذا السفر العشقي مبدأ السفر والباعث اليه ومنتهاه. ويسير في أنوار التجليات فيسمع نداء (تقدم)، إلى أن يصل إلى مقام أحدية الجمع ومقام ظهور الاسم الاعظم الذي هو اسم الله. ويتحقق في هذا المقام حقيقة (اعرفوا الله بالله) باعلى درجاتها. كما يوجد بعد هذا المقام، مقام آخر لا مجال لذكره الان[1].

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٦٧.

## لقاء الله وكيفيته

اعلم انه قد ذهب بعض العلماء والمفسرين الى سد الطريق نهائياً امام لقاء الله، وانكروا المشاهدات العينية والتجليات الذاتية والاسمائية. ظناً منهم انهم بذلك ينزهون الذات المقدسة، وحملوا جميع الايات والاحاديث الحاكية عن لقاء الله على يوم الاخرة والجزاء والثواب والعقاب. برغم أن هذا التوجيه ليس بعيداً كثيراً بالنسبة الى مطلق اللقاء ودلالة بعض الروايات والايات، ولكنه بالنسبة الى بعض الادعية والاحاديث المأثورة في الكتب المعتبرة، والروايات المشهورة التي استشهد بها علماؤنا العظام، فهو ضعيف وبعيد جداً.

ولا بد أن نعرف أنه ليس المقصود من القول بإمكانية لقاء الله ومشاهدة جمال الحق وجلاله، جواز اكتناه الذات المقدسة؛ أو إمكان الاحاطة من خلال العلم الحضوري والمشاهدة العينية الروحانية بالذات الالهية المحيطة بكل شيء على الاطلاق. بل ان امتناع اكتناه الذات في العلم الكلي - الفلسفة - من خلال الفكر، او الاحاطة بها في العرفان الشهودي من خلال البصيرة، من الامور المبرهن عليها وهي مورد اتفاق بين جميع العقلاء وارباب المعرفة واصحاب القلوب. وانما مقصودهم من امكانية لقاء الله هو: انه بعد حصول التقوى التامة والكاملة، واعراض القلب نهائياً عن جميع العوالم، ورفض التوجه نحو النشأتين، ووطأ الأنانية والإنية، والاقبال التام نحو الحق واسماء تلك الذات المقدس وصفاتها، والاستغراق في عشق الذات المقدسة وحبها، والقيام بالمجاهدة القلبية، يحصل صفاء قلبي للسالك، فيغدو

مورداً للتجليات الاسمائية والصفاتية، ويخرق الحجب الغليظة التي كانت بين العبد والاسماء والصفات، ويفنى في الاسماء والصفات، ويصبح متعلقاً بعز قدسه وجلاله، ويحصل له التدلي التام الذاتي؛ وفي هذه الحالة لا يوجد بين الروح المقدس للسالك والحق المتعالي سوى حجاب الاسماء والصفات.

ومن الممكن ان يخرق الحجاب النوري للاسماء والصفات، وينال التجليات الذاتية الغيبية، ويرى نفسه متدلياً ومتعلقاً بالذات المقدس، ويشهد الإحاطة القيومية للحق والفناء الذاتي لنفسه، ويرى بالعيان ان وجوده ووجود كافة الكائنات ظلاً للحق المتعالي.

وكما قامت البراهين انه لا حجاب بين الحق سبحانه والمخلوق الاول المجرد عن جميع المواد والتعلقات، بل البرهان قائم على عدم وجود حجاب بين الحق وكافة المجردات بشكل عام، فكذلك لا يوجد حجاب بين هذا القلب الذي بلغ في سعته واحاطته الموجودات المجردة بل اجتازها ووطئ بأقدامه على رؤوسها، وبين الحق المتعالي(١).

## استدلال الإمام على إمكانية خرق حجاب الأسماء والصفات

كما أشرنا مراراً إن الإمام الخمينيﷺ في المسائل العرفانية الخافية لم ينطلق في كلامه من تحليله الخاص، بل استند إلى الأحاديث والروايات المعتبرة التي وصل إليها عن طريق الكشف واليقين. كما أن شجاعته وصراحته في بيان المسائل تكشف عن نور يقينه ومشاهداته

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٤٨٥.

العينية، التي خرقت حجب الأسماء والصفات، فجلس عاشقاً يشاهد الذات التي لامثيل لها.

لذا أخذ الامام ﷺ يستشهد حول إمكانية خرق حجب الأسماء والصفات بجملة من الأحاديث والآيات غير القابلة للتأويل.

## حديث روح المؤمن

يقول الإمام الصادق عليه السلام حول حقيقة سعة روح المؤمن:

**«إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»**[1].

فكما أنه لا يوجد فاصلة بين الشمس وشعاعها، فإن اتصال روح المؤمن بالله أقوى من ذلك، والنتيجة أن حجاب الأسماء والصفات لا يمكن له أن يوجد فاصلة بين روح المؤمن والله.

## المناجاة الشعبانية

ولقد جاء في المناجاة الشعبانية المقبولة عند العلماء، والتي دلت مضامينها على أنها وردت عن الأئمة المعصومين عليهم السلام:

**«إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك. إلهي واجعلني**

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب الايمان والكفر.

**ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جهراً»**(١).

نستشف من هذه المناجاة ان أبصار القلوب لها هذه القدرة والقابلية على خرق حجب النور التي هي نفسها حجب الاسماء والصفات في مراحل الشهود، وتلقي بنظرها مباشرة الى معدن العظمة، وتصبح معلقة بعز قدسه.

## آية المعراج

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾(٢)

لقد نزلت هذه الآية أثناء معراج الرسول الأكرمﷺ، وهذه المشاهدة الحضورية في مقام الفناء، لا تتنافى مع البرهان القائم على عدم إمكانية إكتناه الذات المقدسة والإحاطة بها. ولا مع الاخبار والآيات الدالة على تنزيه الحق جل وعلا من كل عيب ونقص وحدّ. بل انها مؤكدة ومؤيدة لها.

والان تأمل ما جدوى هذه التأويلات البعيدة؟ فهل يمكن لنا أن نوجه كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول فيه: «**فهبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك**»، بأن تحرق وتألم أولياء الله ناشئ من فراق حور العين وقصور الجنة؟ وهل يمكن تفسير الحديث «**ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً**

---

(١) المناجاة الشعبانية، الامام علي عليه السلام.

(٢) سورة النجم، ٩،٨.

**للعبادة فعبدتك عبادة الاحرار»** على ان هذا الانين من جراء فراق الجنة وأطعمتها؟ هيهات ان يكون ذلك، انه لكلام غير موزون، وتوجيه غير مقبول.

هل يمكن القول ان تجلي جمال الحق سبحانه ليلة المعراج، والمجلس الذي أقيم في تلك الليلة من دون أن يحضرها أحد من الكائنات حتى أمين الوحي جبرائيل، بانه مشاهدة للجنة وقصورها المشيدة، وأن أنوار العظمة والجلال هي رؤيته لنعم الحق؟.

هل أن التجليات التي حصلت للأنبياء عليهم السلام، والتي ورد ذكرها في الادعية المعتبرة هي من قبيل النعم والمأكول والمشروب أو البساتين والقصور؟[1].

## حسرات الامام على ما فرطنا في جنب الله

يتابع الامام الخميني كلامه فيقول:

**للأسف نحن المساكين، المسجونين في حجاب الطبيعة الظلماني، والمصفّدون بسلاسل الآمال والأمنيات، لا نفهم الا المأكل والمشرب والنكاح وأمثالها، وإذا أراد فيلسوف أو عارف أن يزيل هذه الحجب، اعتبرنا سعيه هذا خطأ، وما دمنا مسجونين في بئر عالم الملك المظلم، فلن نستوعب شيئاً من أصحاب المعارف والمشاهدات.**

**ولكن أيها العزيز لا تقارن نفسك بالأولياء، ولا تظن أن**

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٤٨٦.

قلوب الأنبياء وأهل المعارف مثل قلوبنا. فقلوبنا مشحونة بغبار التعلق بالدنيا وملذاتها، كما أن انغماسنا في الشهوات يحول دون أن تكون قلوبنا مرآة لتجلي الحق سبحانه، ومحلاً لظهور المحبوب. ومن الواضح اننا لا نعي شيئاً من تجليات الحق وجماله وجلاله عندما نشعر بالأنانية والذاتية والمحورية؛ بل نكذب كلام أولياء الله وأهل المعرفة، وان لم نكذبها بألستنا في الظاهر، لكذبناها في قلوبنا. وإن لم نجد سبيلاً للتكذيب، لكونها صادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة المعصومين عليهم السلام، لفتحنا باب التأويل والتفسير، وفي نهاية المطاف نكون قد أغلقنا باب معرفة الله.

فنفسر قوله (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وقبله وفيه)[1] على رؤية الأثار، وقوله (لم أعبد رباً لم أره)[2] بالعلم بالمفاهيم الكلية التي تضاهي علومنا، وقوله في آياته الكر يمة التي تتحدث عن لقاء الله، بلقاء يوم الجزاء. وقوله (لي مع الله حالة) برقة القلب.

وقوله (وَارْزُقْنِي النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ)[3] وتأوّه الأولياء وتحرّقهم من ألم الفراق، بالبعد عن حور العين، وطيور الجنة.

وما هذه التفاسير إلا نتيجة أننا لسنا رجال تلك الساحات، ولا نفهم إلا المتع الحيوانية والجسمانية دون غيرها، ولهذا ننكر جميع المعارف. والأعظم من كل ذلك ان هذا الإنكار يفضي إلى غلق باب كل المعارف، و يمنعنا عن السعي والطلب، ويجعلنا

(١) صدر المتألهين، الاسفار الاربعة، ج١، ص١١٧.
(٢) صدر المتألهين، الاسفار الاربعة، ج١، ص١١٧.
(٣) الغزالي، إحياء العلوم، ج١، ص٣١٩.

نقتنع بمستوى الحيوانية والبهيمية، ويحرمنا من مطالعة عوالم الغيب والأنوار الإلهية. لقد أصبحنا نحن المساكين المحرومين نهائياً من المشاهدات والتجليات في منأى حتى عن الإ يمان بهذه المعاني التي هي درجة من الكمال النفسي والتي يمكن أن تسوقنا إلى مرحلة متقدمة.

إننا نهرب من العلم الذي قد يكون منطلقاً وبذرة للمشاهدات، ونغلق عيوننا وأسماعنا نهائياً ونضع قطن الغفلة في آذاننا حتى لا يتطرق كلام الحق إليها. وإذا سمعنا حقيقة من لسان عارف هائم أو سالك حزين أو فيلسوف متأله، ولأننا لا طاقة لنا على سماع تلك الحقيقة، ولأن حُبَّنا لأنفسنا يمنعنا من الاذعان بأن هذه الحقائق تفوق قدرة استيعابنا لها، ترانا نتصدى فوراً للطعن فيه ولعنه وتكفيره وتفسيقه، ولا نتورع من أي غيبة أو تهمة.

إننا نوقف الكتاب ونشترط على كل من يستفيد منه أن يلعن المرحوم الملاّ محسن فيض الكاشاني ـ صاحب كتب الأخبار والأخلاق والكلام والتفسير ـ يومياً مائة مرة. ونرمي صدر المتألهين الذي هو في قمة التوحيد بالزندقة، ولا نبخل عن إهانته أبداً، ونقول عنه بأنه صوفي رغم عدم ظهور أي توجه منه في كل كتبه نحو مذهب التصوف، ورغم تأليفه لكتاب (كسر أصنام الجاهلية في الرد على الصوفية).

إننا نترك الذين يستحقون اللعن، والذين هم ملعونون على لسان الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ونلعن من يصدح بالإ يمان بالله ورسوله

والأئمة الهادين عليهم السلام.

وإنني أعلم بأن هذا اللعن والتوهين لا يسيء إلى مقامهم، بل قد يضاعف حسناتهم ويرفع من درجاتهم، ولكنه يسيئ إلينا وقد يبعث على الخذلان وسلب التوفيق منّا.

يقول شيخنا العارف ـ الشاه آبادي ـ روحي فداه (لا تلعنوا الأشخاص حتى الكافر الذي مات ولم تعرفوا أنه على أيّ دين مات، إلاّ إذا أخبر وليّ معصوم عن حاله بعد الموت، إذ من الممكن أنه غدا مؤمنا لدى سكرات الموت، وإنما العنوا بصورة عامة وكلية).

فكم هو الفرق بين شخص يملك مثل هذه النفس القدسية التي لا ترضى أن يلعن من مات على الكفر ظاهراً، لإمكان أنه غدا مؤمناً في اللحظات الأخيرة من حياته، وبين شخص آخر من أمثالنا ـ وإلى الله المشتكى ـ يرقى المنبر مع أنه من أهل العلم والفضيلة ويقول أمام العلماء والفضلاء مستغرباً (أن فلان رغم انه فيلسوف، يتلو القرآن).

وهذا الكلام يشبه ما إذا قلنا (أن فلان رغم كونه نبياً، يعتقد بالمبدأ والمعاد).

كما انني لا أعتقد بالاقتصار على العلم فقط، لأن العلم الذي لا يفضي الى الإ يمان أراه الحجاب الأكبر. ولكن لو لم نرد الحجاب ولم نتعلم لما تمكنا من خرقه.

إن العلوم بذور المشاهدات، وإنه لمن الممكن أن يبلغ الإنسان

مقامات شامخة من دون تعلّم حجاب المصطلحات والعلوم، ولكن هذا خلاف العادة، وخلاف طبيعة السنن، وإنه نادراً ما يحصل.

فالطريق الطبيعي لمعرفة الله وطلبه هو أن يبتدئ الإنسان أولاً بإنفاق وقته في التفكر بالحق سبحانه، وتحصيل العلم بالله وأسماء ذاته المقدس وصفاته وفق الأساليب المتبعة من التلمذة على يد رجال ذلك العلم، ومن ثم ومن خلال الرياضات العلمية والعملية ترد المعارف على قلبه، وينتهي بذلك حتماً إلى النتيجة المنشودة.

وإذا لم يكن الإنسان من أهل المصطلحات ـ العلم ـ يستطيع أن يصل إلى المطلوب من خلال تذكّر المحبوب، واشغال القلب والحال بالذات المقدّسة. ومن المعلوم أن مثل هذا الانشغال القلبي والتوجه الباطني سيكون سبباً لهدايته، وأن الله سبحانه وتعالى سيعينه في ذلك، وأن حجاباً من الحجب سيرفع عنه، وأنه سيتنزل مرتبة عن انكارات العامة تلك ـ تجاه العرفاء والفلاسفة ـ ولعلّ الله سبحانه وتعالى يفتح عليه ببركة عناياته الخاصة، باباً من المعارف إنه وليّ النعم[١].

بالتأكيد ليس مقصود الامام ﭬ من اظهار هذا الالم والاسى، أن قلبه ينوء بهذا الحمل الثقيل، فقلبه كبحر هادر تعصف به الامواج لتكون مرقاته الى الله. الى أن بلغ المرتبة العليا من الا يمان والشهود، واستطاع أن يسهل الطريق امام كل انسان غافل لشدة ما تحمل من الالم والجراح البالغة.

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٤٩٠.

**ومما لا ريب فيه ان اظهار الامام لكل هذه الحسرة والالم العميق، ما هو الا تنبيه وايقاظ للسالكين. وذلك من أجل ان يروا مخاطر الطريق وعاقبة الذم والقاء التهم، التي من المتوقع أن يصادفها رجال الطريقة وأهل المعرفة.**

## كلام الإمام حول جامعية أحاديث الأئمة عليهم السلام

من جملة الاشياء الاخرى التي كانت سبب حسرة الامام الراحل قدس سره ودهشته، هو حمل معاني أحاديث الائمة عليهم السلام على الفهم العرفي. فهو يقول:

**لا يظن بأن مقصودنا من شرح الحديث الشريف على ضوء مسلك أهل العرفان، هو حصر معنى الحديث في ذلك، حتى يكون من قبيل الرجم بالغيب والتفسير بالرأي، بل هو من أجل دفع توهم حصر معاني الأحاديث المنقولة في باب معارف أصول الدين، في المعاني الرائجة العرفية.**

**وإن الملمّ بأحاديث الأئمة عليهم السلام يعرف بأن تفسير الأخبار المأثورة عنهم عليهم السلام في العقائد ومعارف أصول الدين على أساس الفهم العرفي الشائع لا يكون سديداً وصحيحاً، بل إن أحاديثهم تكتنز أدق المعاني الفلسفية، وتحوي قمة معارف أهل المعرفة.**

**ومن يرجع إلى كتاب (أصول الكافي) وكتاب (التوحيد) للشيخ الصدوق عليه الرحمة، يذعن لما قلناه.**

**ولا يتنافى هذا التفسير العرفاني الدقيق مع ما ورد عن أئمة**

أهل المعرفة، العلماء بالله من كلام جامع، بحيث تقطف كل طائفة حسب مسلكها قدراً من الثمار، ولا يحقّ لأحد أن يقصر الحديث في المعنى الذي ارتآه. مثلاً: نستطيع أن نشرح الحديث الشريف المذكور شرحاً عرفياً رائجاً يتطابق مع ظاهر الألفاظ وفهم الناس بأن نقول أن معنى (إعْرِفُوا الله بالله) هو إعرفوا الله بآثار صنعه واتقان عمله اللذين يكونانِ مِن آثارِ الأَلوهيةَ.

كما أنه يجب معرفة النبي بالرسالة وآثاره المتقنة لدعوته، ومعرفة أولي الأمر بكيفية أعمالهم من قبيل الأمر بالمعروف والعدالة. حيث نتعرف من خلال الآثار على أصحابها. وهذا لا يتنافي مع وجود معنىٍ أدق للحديث، يكون بمثابة البطن له. ووجود معنى آخر أيضاً أدق من المعنى الثاني يكون بمنزلة بطن البطن.

وعلى أي حال إن مقارنة كلام الأولياء عليهم السلام بكلام أمثالنا غير صحيح، كما أن قياس أشخاصهم عليهم السلام على أشخاص من أمثالنا مجحف وباطل. ولا أستطيع أن أشرح هذا الموضوع بصورة مفصلة مع بيان فلسفته وسببه.

ومن غرائب الأمور: أن بعضاً يطعن فيٍ هذه المعاني الدقيقة العرفانّية والفلسفية ويعترض عليها قائلاً: إن أحاديث أئمة الهدى عليهم السلام هي لتوجيه الناس، فلابد وأن تتوافق مع الفهم العرفي، ويجب أن لا تصدر عنهم المفاهيم الفلسفية أو العرفانية التي لا ينالها الفهم العرفي لعامة الناس.

إن هذا افتراء مستنكر وتهمة فظيعة نجمت عن قلة التدبر في أخبار أهل البيت عليهم السلام ومعارف الأنبياء وعدم التعمق فيها.

فواعجباً لو أن الأنبياء والأولياء عليهم السلام لم يقصدوا تعليم الناس دقائق التوحيد والمعارف، فمن كان بإمكانه أن ينهض بمثل هذا التعليم؟

هل أن التوحيد والمعارف الأخرى لا تستبطن الدقائق العلمية، وإن الناس جميعاً في استيعابهم للمعارف على مستوىً واحد؟

هل أن معارف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، تتساوى مع معارفنا؟ وهي من قبيل المعارف الشائعة الموجودة لدى الناس، أو إنها تختلف عن معارفنا؟

وهل أن تعليم معارف وعلوم أهل البيت عليهم السلام غير ضروري بل غير محبذ؟ أو لا واحداً مما تقدم، وأن الأئمة عليهم السلام لم يهتموا لهذه المعارف؟

وهل من المعقول أن من لا يتوانى عن بيان الآداب المستحبة للنوم والأكل وبيت الخلاء و... أن يكون قد غفل عن بيان المعارف الإلهية التي هي منتهى أمال الأولياء؟.

والأغرب من ذلك أن بعض هؤلاء المعترضين الرافضين لهذه المعاني الدقيقة قد تناولوا الأخبار الفقهية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام والتي من المسلم ان فهمها موكول الى العرف، واقاموا حولها مباحثات دقيقة يعجز عن فهمها العقل فضلاً عن العرف، ينسبون هذا الى الارتكاز العرفي.

وكل من ينكر ما ذكرته، فعليه مراجعة المباحث التي وردت

**في قاعدة (على اليد ما أخذت حتى تؤدي) وأمثالها من القواعد الفقهية الكلية وخاصة المرتبطة منها بالمعاملات.**

وعلى أي حال إن البحث قد خرج من أيدينا، والقلم قد تمرّد علينا، والكاتب يُشهد الله عز وجل على أنه لا يقصد من هذا الكلام إلاّ تعريف أخوانه في الله بالمعارف الإلهية. (**وَأَسْتَغفِرُ اللهَ مِنَ الزّلَلِ وَالْفَشَلِ وَالْكَسَلِ، وَالْحَمْدُ لله أولاً وَآخِراً**)[١].

لقد أردنا من ايراد عبارات الامام قدس سره الصريحة هذه، استخلاص مسائل هي في غاية الاهمية، لتكون شعارنا في سيرنا المعرفي والعلمي والعرفاني.

**أولاً**: استذكار شجاعة الامام قدس سره وقاطعيته في طرح المباحث، والتي لم تكن بمنأى عن نقد وذم البعض وفي بعض الاحيان الطعن واللعن.

**ثانياً**: عشقه العميق والخالص للمباحث العرفانية على ضوء ولاية الائمة الاطهار عليهم السلام.

**ثالثاً**: قدرة الامام قدس سره العجيبة على حل معضلات المسائل الالهية وتحليلها وتبيينها بشكل دقيق وفق المشارب المختلفة.

**رابعاً**: اهتمام الامام قدس سره بهداية الباحثين عن الطريق، وتقديم التجارب لهم وتزويدهم بالزاد، بخلاف الاشخاص الذين لا يعتقدون بهذا الرأي ويعتبرونه افشاء للاسرار.

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٦٦٨.

**خامساً**: التعاطي بحزم مع معوجي الفكر وسيئي الفهم، الذين يغلقون الطريق ويحرفون الحقائق.

**سادساً**: الومضات الروحية والسبحات الرحمانية للامامؒ التي تملأ كلماته وعباراته، جعلت كل من القلم والورق والالفاظ تنال حظها أيضاً لشدة عشق الامامؒ.

**سابعاً**: لقد أسس الامام الراحلؒ العرفان الاسلامي على مبنى الفهم الصحيح للآيات، والغوص بعمق في بطن احاديث الائمة المعصومين ﷺ، ولهذا يقولؒ:

**والله شهيد على ما أقول وكفى به شهيداً إنني لا أروم من هذا الكلام الترويج للفلسفة التقليدية أو العرفان التقليدي، بل المقصود، هو دفع إخواني المؤمنين وخاصة أهل العلم، نحو معارف أهل البيت ﷺ، والقرآن وعدم الابتعاد عنه. إن الهدف الأهم والأسمى لبعثة الرسل وإنزال الكتب هو معرفة الله، التي تتوفر في ظلها سعادة الدنيا والآخرة.**

**ولكن المؤسف أن الإنسان ما دام يعيش في هذا العالم، فهو واقع في الحجب المختلفة، التي تمنعه من رؤية طريق سعادته. وكلما دعاه الأولياء والأنبياء والعلماء ونصحوه لم يصحو من نومه، ولم يصغ لهذه الإرشادات، وعندما يستيقظ سيجد أن رأسمال السعادة قد ضاع من يديه فلا يملك إلا الحسرة والندامة[1].**

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٧٠٩.

## الفصل السادس

# تسبيح الموجودات

# تسبيح الموجودات

## التسبيح التكويني والنطقي

يقصد من التسبيح التكويني، الشعور الفطري لدى جميع الموجودات، حتى النباتات والجمادات، بالذات الالهية المقدسة. وهذا الشعور الفطري لا يتفاوت شدة أو ضعفاً بحسب مرتبة الموجودات ومقامها. وقد أشارت الآية الكريمة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] الى هذا المعنى، أما التسبيح النطقي فمعناه أن جميع الموجودات تسبح وتقدس ذات الحق تعالى بلسانها النطقي وببيانها الخاص، بحيث يمكن مشاهدة ذكرها ومناجاتها عياناً أو سماعها بالأذن.

## الامام الراحلﷺ وتسبيح الكائنات

الامام الراحلﷺ وبالاستناد الى الآية الشريفة في أول سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، يرى ان جميع الموجودات تسبح لله، حتى النباتات والجمادات. ويعتبر تخصيص التسبيح بذوي العقول منشأه احتجاب عقول أرباب العقول. ثم يقول:

---

(١) سورة الجمعة، ١.

(٢) سورة الحديد، ١.

**ولو فرضنا أن هذه الآية المباركة تقبل التأويل بخصوص تسبيح الكائنات، ولكنّ هناك آيات شريفة أخرى لا تقبل التأويل مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[1].**

**فتأويل التسبيح بالتسبيح التكويني أو الفطري، هو من التأويلات البعيدة والضعيفة، الذي لا ينسجم مع الأحاديث والآيات الشريفة، وترفضه البراهين الفلسفية السديدة، وينكره المسلك العرفاني الجميل[2].**

## اعتراض الامام على صدر المتألهين

يقول الامام الراحل في سياق اعتراضه على صدر المتألهين على كون تسبيح الموجودات تسبيحاً نطقياً:

**والعجيب من الفيلسوف الكبير، والعالم الجليل صدر المتألهين قدس سره الذي لا يرى التسبيح في هذه الآيات تسبيحاً نطقياً، مفسّراً نطق بعض الجمادات مثل الأحجار الصغيرة، بإنشاء النفس المقدسة للولي الأصوات والألفاظ حسب وضع الجماد والنبات. ورأى بأن قول بعض أهل المعرفة أن لجميع الكائنات نطقاً مخالف للبراهين، وملازم للتعطيل ودوام القسر، رغم أن هذا الكلام يغاير المبادئ والأصول التي ارتأها وانطلق منها. و هذا القول الذي هو الحق الصريح ولب لباب العرفان، لا يستلزم ابداً أية مفسدة[3].**

(١) سورة الحج، ١٨.

(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٧٠١.

(٣) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٧٠١.

## استدلال الإمام على كون تسبيح الكائنات تسبيحاً نطقياً

يذكر الإمام الراحلﷺ بنحو مجمل أن تسبيح الموجودات هو من شؤونها الحياتية، ولإثبات مدعاه يقولﷺ :

**لقد أشرنا سابقاً أن حقيقة الوجود هي عين الشعور والعلم والإرادة والقدرة والحياة وكافة الشؤون الحياتية.**

**فإذا لم يكن لشيءٍ ما علم ولا حياة نهائياً فليس له وجود. ومن ذاق طعم حقيقة أصالة الوجود واشتراكه المعنوي، على مسلك العرفاء، استطاع ان يصدق ذوقاً أو علماً ان الحياة السارية في جميع الموجودات لديها كافة الشؤون الحياتية من قبيل العلم والارادة والكلام وغيرها. وإذا بلغ مقام المشاهدة بواسطة ترويض النفس والحالات المعنوية، لشاهد بأم عينه، وسمع دَوِيّ تسبيح الموجودات وتقديسها.**

**ومن المؤسف أن سُكر المادة والطبيعة قد أوهن العين والسمع والحواس الأخرى، ومنعنا من الوقوف على الحقائق الوجودية والهويات العينية.**

**فكما أن بيننا وبين الحق عز وجل حجباً من الظلام وحجباً من النور تمنعنا من مشاهدة ألطاف الحق سبحانه، فكذلك بيننا وبين الكائنات الأخرى، بل بيننا وبين أنفسنا حجب، تَفْصلنا عن إدراك حياتها وعلمها وكافة شؤوناتها. والأسوء من كل الحجب هو حجاب الإنكار انطلاقاً من الأفكار المحجوبة عن الحق**

**التي تمنع الإنسان من ادراك كل شيء. وخير وسيلة لأمثالنا نحن المحجوبون هو التسليم والتصديق لآيات الله الكريمة وأحاديث أوليائه، وسدّ باب التفسير بالرأي، وتطبيقه على الواقع الخارجي عبر هذه العقول الضعيفة**[1].

يتابع الامام الراحل(قدس سره) كلامه، في كتابه الاربعون حديثاً، في تتمة بحثه حول إثبات التسبيح النطقي للموجودات، مستنداً الى الآيات التي يرى أنها لا تقبل التأويل:

## حديث النملة

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]

## حديث الهدهد

أخذ النبي سليمان(عليه السلام) يتفقد الطير من بين جنده، فلم يجد الهدهد بين جمع الطيور. عندها سأل: اين الهدهد غاب دون أن آذن له. فإني لمعذّبه عذاباً شديداً او أقطع رأسه أو يأتيني بخبر مبين عن سبب غيبته، بعد مرور فترة من الزمن عاد الهدهد وقال:

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[3].

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٧٠٢.

(٢) سورة النمل، ١٨.

(٣) سورة النمل، ٢٢، ٢٣.

وبالمحصلة يدل مجموع هذه الآيات على ان تسبيح الموجودات هو تسبيح نطقي. وتشير هذه الآيات اضافة الى الأخبار المأثورة عن أهل بيت الطهارة والعصمة الموزعة في الأبواب مختلفة صراحة بذلك، وهي غير قابلة للتأويل.

## الأولياء يفقهون تسبيح الموجودات

ويعتقد الإمام الراحلﷺ أن ادراك التسبيح النطقي للموجودات، مختص بأولياء الله الكمل، فيقول:

**وبالمحصلة لابد من اعتبار سريان الحياة والتسبيح الادراكي والواعي للأشياء، من بديهيات وضروريات الفلسفة العالية، ومن المسلّمات عند أصحاب الشرائع والعرفان. ولكن هناك كيفية خاصة لتسبيح كل موجود، وأذكار مخصوصة بكل واحد من الكائنات، وإن كان للإنسان الذكر الجامع ولكافة الموجودات أذكار تتناسب مع نشأتها وتكوينها، تعرف اجمالاً من خلال الميزان العلمي والعرفاني المرتبط بعلم الأسماء، أما تفصيلها فيرتبط بالعلم الشهودي، وهو مختص بالأولياء الكمل**[1].

بالتأكيد ان طلب الاشياء للحق والبحث عنه يقتضي أن يكون تسبيحها تسبيحاً نطقياً، ومن الطبيعي أن يرى السالك جميع سلسلة الوجود عاشقة وطالبة للحق، وأنها تظهر هذا العشق وهذه المحبة، لان الاستغراق في بحر الكمال والاحدية هو حال كافة الموجودات

---

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٧٠٣.

من القوى الملكية الى كل ارجاء الغيب. وهذا هو معنى ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[١]. ولهذا يقول الامام الراحل ﷺ:

**(من هنا ان غاية الآمال ونهاية الحركات ومنتهى الشوق ومرجع الموجودات ومعشوق الكائنات ومحبوب العشاق ومطلوب المجذوبين، هي الذات المقدسة.**

**ولو انهم محجوبين عن هذا المطلوب، ويعتبرون انفسهم تعبد وتعشق وتطلب وتنجذب لامور أخرى. وينبغي للسالك الى الله أن يخرق بقدم المعرفة هذا الحجاب السميك للفطرة؛ وطالما لم يصل الى هذا المقام، فلا حق له أن يقول (اياك نعبد )، و( لا نطلب الا اياك )، و (لا نثني الا عليك)، و(لا نستعين في كل أمورنا الا بك) .**

فجميعنا في سلسلة الموجودات و جميع ذرات الكائنات من أدنى مرتبة المادة حتى أعلى مرتبة الغيب من الاعيان الثابتة، نطلب الحق ونبحث عنه، وكل شخص يطلبك في كل مطلوب، ويحبك في كل محبوب )[٢].

*****

(١) الشورى، ٥٣.

(٢) الامام الخميني، سر الصلاة.

# الفصل السابع

# ارتباط العرفان بالدين والفلسفة

# ارتباط العرفان بالدين والفلسفة

## ارتباط العرفان بالدين

رغن ان الحكيم الملا صدرا في العصر الاخير يعتبر رافع راية التوحيد بين الفلسفة والدين، وأنه سعى لكي يعرض حكمته كمزيج بين الفلسفة والدين. الا أن هذه المصالحة لم تتعدى حدود التنظير والمباحث النظرية. في حين أظهر الإمام الراحلﷺ اتحاد الدين مع كافة العلوم في مجالاتها الواسعة، في عصر صُوِّر فيه الدين في الشرق والغرب على أنه أفيون الشعوب، واتجهت العديد من المذاهب تحت ذريعة نفي الدين لتحتل امكنة بين شعوب العالم.

الفكر الديني للإمام الراحلﷺ له دلالاته الخاصة، وادراكه يحتاج الى مضي فترة زمنية طويلة. كما أن انعكاسات تأثير هذا الفكر الديني على المجتمع والتاريخ وأبعاده سوف تظهر أكثر فأكثر في المستقبل. وما يميز هذا الفكر كون محورية الله هي الأصل والأساس فيه. كما أن دعوة الامامﷺ الدائمة الى "الله" وسعيه لتحصيل الايمان والايثار وتركه للأنا والانانية في سبيل تحقيق احكام الاسلام النورانية،

قد صنعت منه شخصية تعتبر نفسها دائماً مقصرة ومفتقرة الى الحق.

هذا وقد تجلى حضور الله بقوة في سيرته العملية، فقلبه لم يطلب الا رضا الله، وهو لم يكن ليحث الاخرين على القيام باعمال لا يقوم هو بها. ففي عصر أباد فيه القادة النفعيون والطامحون الانانيون شعوباً كثيرة، بقي الامام ملتزماً بمبادئه التوحيدية، مرجحاً خدمة الناس على تولي قيادتهم.

فسرّ نجاح ورسوخ الفكر الديني في ساحة الحياة والعمل، أن الله عزوجل يمثل روح وحقيقة ذلك الفكر. والامام الخميني ﷺ بتعاليمه وتضحياته في كافة مراحل حياته قد أظهر لنا كيف أن تحصيل رضا الله تعالى أهم من كل شيء، ولو أن هذه المعادلة لا تتلائم اليوم مع حسابات العالم الديبلوماسية. فروح التعبد والالتزام بأحكام الاسلام التي كانت تسري في حياة الامام ﷺ ببعدها السياسي والفردي، ما هي الا رشحات من معرفته الشهودية بالله. وقد روت أمطار رحمته المتعطشين للحقيقة أثناء سيره من الحق نحو الخلق.

من هنا يمكن استنتاج ان الامام الراحل ﷺ طوال حياته المباركة، قد عمل على تثبيت هذه الحقيقة:

**أولاً**: ان الدين يستطيع أن يحكم المجتمعات، وهذا الحق ثابت للفكر الديني بلا منازع.

**ثانياً**: ان جوهر ولب الدين هو معرفة الله، بحيث تتجلى آثار الايمان والعبادة في مختلف مجالات حياة البشر. بمعنى أن السيرة

العملية والاخلاقية نابعة من العرفان الشهودي، وهذا هو معنى حضور الدين في المجتمع وضمانة سلامته.

## العرفان والفلسفة

من لا يعرف الامام الراحلﷺ، واكتفى بمطالعة آثاره العرفانية فقط، يظن أن الامامﷺ هو مجرد عارف، لا معرفة له أصلاً بالعلوم الاخرى. و من يطالع آثاره الفقهية ايضا يظن أن الامامﷺ مجرد فقيه لم تطأ قدمه نطاق العلوم الاخرى. في حين أن الامامﷺ شخصية متعددة الأبعاد، استفاد من كافة العلوم، وادرك غاية كل علم، فغدا صاحب رؤية في كل علم.

لكن ما يميز الامامﷺ أنه لم يخلط العلوم ببعضها البعض، فقد بحث وحقق في كل علم من مكانه، واستفاد من مصطلحات القوم في كل مجال، وهو ما يحكي عن تبحر الامامﷺ ومهارته العالية. فالامامﷺ كان يعرف جيداً منزلة كل علم، واستطاع من خلال تسلطه التام على كل علم أن يستفيد من الاصول والمنهج المرتبط به من أجل إثبات وتحليل مسائله وموضوعاته. أما غاية كل العلوم فتؤول الى العرفان والمعرفة الشهودية.

الامام الراحلﷺ عندما يطرح مباحث التوحيد، ضمن نطاق العرفان والفلسفة، فهو ينطلق من المعرفة الشهودية. وعلى رغم قوله بأهمية البرهان الفلسفي في مكانه، لكنه لا يعتبره بانه ينتج معرفة كاملة، ويعتقد أن المعرفة الفلسفية انما تصبح منتجة عندما تقترن

بالمعرفة العرفانية.

بالتأكيد لا ينبغي لنا أن نتصور ان الامام قدس سره ينفي الفلسفة، بل هو يعتبر ان الفلسفة انما تكون منتجة في معالجة القضايا ضمن نطاقها الخاص، أما عندما يصل الدور الى المعرفة الشهودية، فان رجل الاستدلاليين تكون خشبية. وفراسة الفلسفة هي أنها في المسائل التي تتعلق بالمعرفة الشهودية توكل إصدار الأحكام إلى العرفان، حتى تحفظ بذلك الحدود ويبقى الاتحاد بين الفلسفة والعرفان قائماً. فاثناء البحث والدراسة لا بد أن تفتح لفائف الفيلسوف والحكيم. لكن عندما يفتح الطريق نحو الحانة يجب ان تطوى هذه اللفائف. بل يرى الامام قدس سره أنه في مقام الفناء الشهودي يجب ان تمزق لفائف تعاليم العارف.

## الفناء الشهودي أو مقام الولاية

بالتأكيد ان مقام الفناء الشهودي هو مقام الولاية. فالمعرفة الشهودية من دون الولاية لا نفع منها، ولا توصل السالك في سيره المعنوي الى مكان. لهذا يعتبر الامام الراحل قدس سره أن الولاية كمال المعرفة، وذلك لان الولاية هي الحلقة التي توصل الغيب بالشهود. ومادام السالك لم يتلق خطاباً من عالم الغيب، فلا يعوّل على ما ادخره من شهود، لانه لا يدري ان كان ما حصله هو بمقتضى القضاء والقدر المنتقش في لوح الحضرة العلمية، أم لا ؟

فالاطمئنان الى المكاشفات يحتاج الى تأييد غيبي، وهذا لا

يفتح له الباب إلا بالولاية. وللسبب ذاته، يعتبر الاطلاع على سر القضاء والقدر من أعقد المباحث العرفانية.

ولهذا يعتقد محي الدين ابن عربي ان العلم بسر القضاء والقدر مختص (بخاتم الولاية)، وبغيره من الأولياء الكمل ممن يقتبسون النور من مشكاة خاتم الولاية.

**وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء الرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء الا من مشكاة الولي الخاتم**[1].

والإمام الراحل‌ﷺ استطاع أن يعالج هذه العقدة على ضوء ولاية الحقيقة المحمدية والحقيقة العلوية، وقد اثبت في كتابه الشريف (مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية) بذوقه وسليقته الخاصة، اتحاد الولاية المحمدية مع الولاية العلوية. كما يعتبر الإمام الراحل‌ﷺ ان الولاية هي سارية في الحركة الحبية، ومهمة رسول الله‌ﷺ ترسيم وهندسة هذه المحبة، وأجر رسالته انما كان في محبة أهل البيت‌عليهم السلام، لان محبتهم هي غاية الحركة الحبية ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وإنما كانت محبتهم هي الغاية، لأنهم هم الواسطة بين عالم الغيب والشهود. فمن دونهم لا يفتح باب عالم الوجود، وأيضا لا يصل العالم إلى حشره وقيامته. «بنا فتح الله وبنا يختم».

(١) فصوص الحكم / الفص الشيشي.

## السؤال بلسان الاستعداد مستجاب

من بركات الولاية اطلاع السالك الكامل على اسرار عالم الغيب، والتي من جملتها سر القضاء والقدر، لان السالك بحسب المراتب النزولية والصعودية يطوي العوالم والمقامات، بحيث تكون استعداداته متناسبة مع كل نشأة ومقام. وعليه كل ما يطلبه السالك من ربه في ذلك المقام، يستجاب له حتماً. كما انه من الممكن ان يطلب لسان السالك شيئاً لا يكون استعداده طالباً له، أو انه يطلب التأخير في الاستجابة، والذي يعرف بلسان العامة بشروط واسباب الإستجابة.

يقول الإمام الراحل في هذا المجال:

**«الدعاء بلسان الذات والاستعداد مقبول وغير مردود. والفيض بمقدار الاستحقاق يفاض ولا يمسك. والدعاء بلسان القال اذا كان مطابقاً له بلسان الاستعداد ولم يكن منطق اللسان على خلاف منطق القلب، ولا المقال مبايناً للحال، فيكون مستجاباً»**[1].

ويقول الامام في موضع آخر ان جميع الموجودات أعم من العقول المجردة والنفوس الملكية والملائكة المدبرة وسكان الملكوت وسائر المراتب هي مظهر لاسم خاص، بحيث يتجلى لهم ربهم بنفس ذلك الاسم، لان الله تعالى بمقتضى﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ له في كل آن من الزمان شأن، ويتجلى على كل من الموجودات بحسب مقامها. وفي اثبات هذا المعنى يقول الامام:

---

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١٢٩

**ولكل منها مقام معلوم،منهم ركّع لا يسجدون، ومنهم سجّد لا يركعون، لا يمكن لهم تجاوز مقامهم وتخطي عن محلهم**[١].

نستنتج هنا ان الطلب بمقتضى الاستعداد، يضع السالك في ظروف جديدة، كان فاقداً لها من قبل. ومثلما ان الله له شأن في كل آن من الزمن، كذلك السالك له في كل مقام قابلية واستعداد. وهذا هو معنى ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وهذه العملية انما تتحقق ضمن الحركة الحبية للولاية، ولهذا السبب ليس هناك مقاماً معيناً ومحدوداً لأهل الولاية. يقول الإمام الراحل ﷺ في هذا المجال:

**وأما أهل يثرب الإنسانية ومدينة النبوة فلا مقام لهم، فلهذا صاروا حاملي الولاية المطلقة العلوية التي هي كل الشؤون الإلهية، وصاروا مستحقين للخلافة التامة الكبرى، وصاروا اصحاب مقام الظلومية التي هي كما قيل تجاوز جميع المقامات وكسر أصنام الأنانيات والإنيات، والجهولية التي هي الفناء عن الفناء ومرتبة الجهل المطلق والعدم المحض**[٢].

فالسالك في صراط الولاية يكون متمكناً من مقام الجمع والتفصيل والوحدة والكثرة، ويحفظ في الوقت نفسه كافة المراحل والمقامات السابقة، لانه يقتبس النور من مشكاة أهل البيت عليهم السلام، ويقف على اسرار قضاء وقدر تلك المراحل.

(١) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١٤٩

(٢) الامام الخميني، شرح دعاء السحر، ص ١٥٠.

لذا ورد عن أهل البيت عليهم السلام: **«ان دعاء المؤمن يغير القضاء والقدر»**، وهو الدعاء الجاري على لسان الولاية في مقام البقاء بعد الفناء. فجميع الاسرار كامنة في حقيقة الولاية، التي بها يخرق السالك كل التعينات والحدود، وتمنحه أثناء كل تجلي مقاماً جديداً. ولان أمة محمد هي فرع شجرة الولاية والنبوة، كان وليّ الله مأموراً أن يصحب السالك حتى يصل الى حالة التمكن في مقام جمع الجمع، والآية الشريفة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ تشير الى هذا المعنى.

ولهذا قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، شيبتني سورة هود، لأنه صلى الله عليه وآله مأمور باستقامة الامة ايضاً. ولقد وردت هذه الاية في سورتي الشورى وهود من القرآن، وتبعتها في سورة هود جملة (ومن تاب معك)، وهو سر الحركة الحبية والسير والسلوك في صراط الولاية، الذي يظهر للسالكين واصحاب المعرفة في مقام المكاشفة والمشاهدة.

## العرفان والفقه

لقد برز التعارض بين أحكام الفقه والعرفان جراء اختلاف الآراء بين الاشخاص الذين لم يكلفوا انفسهم عناء البحث في هذا المجال، في حين أن الفكر الشيعي الاصيل يعتبر العرفان باطن جميع الاحكام الظاهرية.

وهو ما ظهر من خلال المساعي التي بذلها الملا صدرا وقبله العلامة السيد حيدر الآملي في مجال اتحاد البرهان والعرفان.

وبالخصوص عندما كتب الامام الخميني الفقيه والمرجع كتابه

الشريف (سر الصلاة)، وعرض مراحل السير والسلوك العرفاني من خلال أركان الصلاة بنحو مثير للدهشة. فهو قد اخفى على حقيقة اتحاد القرآن مع العرفان مع البرهان طابعاً خاصاً. والامام الراحل في هذا المضمار يعتبر الشريعة من دون الطريقة ناقصة،بل يجب على السالك ان يجمع بين الطريقة والشريعة:

**«فمن رأى ان الباطن لم يحصل له مع الاعمال الظاهرة واتباع التكاليف الالهية، فليعلم انه لم يقم على الظاهر على ما هو عليه، ومن اراد ان يصل الى الباطن من غير طريق الظاهر كبعض عوام الصوفية فهو على غير بينة من ربه»**[١].

بالتأكيد ان الاساس الذي يستند اليه الامام بخصوص اتحاد الشريعة والطريقة هو القرآن الكريم نفسه، بمعنى ان تمام الاحكام الفقهية تتلقى كأصول موضوعة في نطاق العرفان.

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢].

من الواجب تنفيذ حكم القصاص ضمن دائرة الفقه، وتطبيقه يعد ضروري من اجل حفظ الحياة وازالة الظلم والتعدي. لكن عندما

(١) تعليقة الامام على شرح فصوص الحكم، الفص الايوبي، ص ٢٠١.

(٢) سورة البقرة، ١٧٨.

يتم تناول بحث العفو والمغفرة من قبل ولي الدم، فيكون الكلام ضمن دائرة العرفان انطلاقاً من الاصول التي تتناسب معه، بحيث يُقال: لان الله خلق آدم على صورته لا يجوز الاعتداء عليه، وهذا البيان لا يتعارض ابداً مع حكم القصاص الفقهي ضمن نطاقه الخاص.

من البديهي ان العارف الواصل، يرجح رحمة الله على القصاص. وعندما لا يترتب على عفو القاتل أية مفسدة شرعية، نجد أنه يعفو عنه. ومن المؤكد أن الله تعالى ايضاً في تلك المواقف يرضى بالعفو، بدليل انه يجعل العفو عن القاتل كفارة لذنوب المقتول وأصحاب الدم.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾(١).

والآية ادناه تشير ايضاً الى ان الله تعالى يرضى بالعفو والصفح.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

بناء عليه ليس ثمة تعارض وتضاد بين الاحكام الفقهية واحكام العرفان، فكل منها قابل للتطبيق وهو مستساغ ضمن دائرته. واذا ما سمعنا أو قرأنا كلاماً صادراً عن ولي من أولياء الله، او من احد العرفاء في هذا المجال، علينا ان نفهم المراد منه جيداً واللحاظ الذي ينطلق منه، كي لا نصدر أحكاماً خاطئة.

---

(١) المائدة، ٤٥.

(٢) الشورى، ٤٠.

يقول الامام الخميني في هذا المجال:

**«من المسائل المهمة التي ينبغي الالتفات اليها، لاسيما الإخوان المؤمنين وأهل العلم، أنهم إذا سمعوا أو قرأوا حديثاً لبعض علماء النفس وأهل المعرفة عليهم ألا يرموه بالفساد والبطلان بلا حجة شرعية؛ ولا يظنوا أن كل من ذكر اسم مقام من مقامات الاولياء والعرفاء هو صوفي أو مروج لادعاءات الصوفية، فإنني أقسم بروح الحبيب أن كلماتهم هي شرح لما بينه القرآن والحديث»**[١].

## العرفان والجهاد

الجهاد هو ظهور العرفان والمعرفة والعشق في قالب الشجاعة، ويلازمه عدم الخوف من غير الله، لذا نرى وجود الائمة الاطهار عليهم السلام يعبق بالقدرة والشجاعة، ولا معنى للخوف من العدو لديهم.

فبسبب عمق معرفتهم بالله وعشقهم له، ولشدة اتصال ارواحهم بالله، انتفى الخوف والاضطراب من وجودهم المقدس.

ورد في الذكر الحكيم بخصوص بيان هذه الحقيقة:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]

وكذلك يقول مولى المتقين الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة:

**«والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ما باليت ولا**

---

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٩٥.

(٢) آل عمران، ٢٥.

**استوحشت.....»**[١].

ويخاطب الامام الحسين عليه السلام أصحابه في ليلة عاشوراء:

**«فمن كان منكم على حر السيوف وطعنة الأسنة فليأت معنا والا فلينصرف عنا»**[٢].

من البديهي ان القدرة والشجاعة أصالة هي من الله، لكن ظهورهما في الخارج، يكون من خلال الوجود المقدس للوليّ الاعظم. لذا من تكون هويته القدرة الالهية في عالم الوجود، لا سبيل للخوف والرهبة الى وجوده.

ومن جهة أخرى إن تكليف ولي الله، هو هداية المجتمع واصلاحه وحفظ بقائه على اساس اقامة موازين القسط والعدل. ومن البديهي أنه يلزم لاداء هذه المهمة امتلاك حكومة. كما وأن إقامة الحكومة بهذه الخاصية تتعلق حصراً باولياء الله. وجوهر الحكومة والسلطة هو ايضاً في العرفان.

بناء عليه الجهاد هو ظهور العرفان من خلال ولاية الولي الاعظم تحت اسم القدرة والشجاعة. ووظيفة هذا الجهاد، إقامة الحكومة والهداية وحفظ بقاء الموجودات في كل الظروف. من هنا تولى الامام الراحل قدس سره الذي كان يمثل مظهر ولاية الائمة الطاهرين في زمانه، قيادة الثورة الاسلامية على أساس الولاية، وفي نهاية المطاف قادها الى

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٦٥.

(٢) بلاغة الحسين، ص ٧٢.

النصر. ولقد تبلور البعد الجهادي الذي هو جوهر الحكومة الالهية في وجوده المبارك، الى حد صار كلامه متجانساً مع كلام المعصومين عليهم السلام.

يقول الامام ﷺ عقب اعتقاله من قبل عملاء النظام البهلوي في العام ١٣٤٢:

**عندما أرى ان مصلحة الاسلام تقتضي ان اتكلم، اتكلم وأمشي في أثره، ولا أخشى شيئاً بحمد الله تعالى.**

**والله لم أخشى أحداً حتى الان، ايضاً ذلك اليوم الذي اعتقلوني فيه( اعتقال الامام كان في شهر خرداد ١٣٤٢)، ذلك اليوم ايضاً هم خافوا، ولكنني واسيتهم؛ ان لا تخافوا[1].**

ان شجاعة الامام الراحل ﷺ انما هي نابعة من مقام الولاية ومن معرفته الشهودية. كما أن حضور الله تعالى في قلبه المبارك إثر تزكيته لنفسه وعبوديته التامة ولدت في نفسه الشجاعة، بحيث لم يخش أية قدرة غير قدرة الله. لذا يترشح الجهاد الذي هو كنه الحكومة وقوام المجتمع وصفة القادة الالهيين العظماء، من العرفان. ويمكن القول ان العرفان في ساحة السياسية والحكومة هو أصل وأساس.

*****

(١) صحيفة نور، ج١، ص١٢.

## الفصل الثامن

# العرفان العملي

# العرفان العملي

## منازل السير والسلوك

ما يدركه السالك الى الله أثناء دراسته للعرفان النظري، وما يكشف له من حقائق في معرفة الذات والاسماء الالهية وعالم الوجود، انما تتجلى آثاره وثماره في العرفان العملي.

وبتعبير آخر يكمل كل من العرفان النظري والعرفان العملي بعضهما البعض، وليس ثمة تقدم وتأخر فيما بينهما. فالعرفاء والاولياء الكمّل يتحدثون بمحاذاة العرفان النظري عن منازل ومقامات السير والسلوك، تحت عنوان العرفان العملي، بحيث يوصل طي تلك المنازل السالك الى مقصده الاصلي.

ولكي يستفيد السالكون من انفاس الامام الراحل‌ؒ القدسية، قام‌ؒ وصنف للارواح المتلهفة والنفوس المستعدة في مجال العرفان العملي كتابه الشريف (سر الصلاة)، وانصافاً قليلة هي المتون العرفانية التي يمكن مقارنتها به من حيث الحسن والاتقان.

يتحدث الامام الراحل قدس سره عن المقامات والمنازل العرفانية، فيقول:

**اعلم أن للانسان مقامات ومدارج؛ وقد رأوا باعتبار ما ان له مقامين: مقام الدنيا والشهادة، ومقام الآخرة والغيب، فأحدهما ظل الرحمن، والآخر ظل الرحيم.**

**والانسان - بهذا الاعتبار - واقع تحت ظل جميع الأسماء ذوات الظل والربوبية، ومربوب لها ضمن دائرة إحاطة اسمي الرحمن والرحيم. وكذلك جمع الله سبحانه هذا الامر في الآية الشريفة (بسم الله الرحمن الرحيم) ويقول العرفاء: (ظهر الوجود ببسم الله الرحمن الرحيم).**

**وهذان المقامان متحققان لدى الانسان الكامل بدءاً من ظهور المشيئة المطلقة من مكامن الغيب الاحدي الى المقبض الهيولي أو مقبض الأرض السابعة وهو حجاب الإنسانية وفقاً لمسلك العرفاء الشامخين - وهو أحد قوسي الوجود - ومن مقبض تراكم الفيض، الى منتهى النهاية لغيب المشيئة وإطلاق الوجود - وهو القوس الثاني.**

**والانسان الكامل - بحسب هذين المقامين، أي مقام الشهادة والظهور بالرحمانية، ومقام الغيب والظهور بالرحيمية - هو تمام دائرة الوجود ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[1].**

**وأحد هذين هو حقيقة ليلة القدر وسرها، اذ أن شمس الحقيقة تحتجب خلف حجاب التعينات.**

(١) سورة النجم، ٨،٩.

والآخر هو حقيقة يوم القيامة حيث بروزها وطلوعها من أفق حجابها ( التعينات ) وهما الليلة واليوم الألوهيان.

وللانسان – باعتبار آخر – ثلاثة مقامات:

الأول: مقام الملك والدنيا.

الثاني: مقام البرزخ.

والثالث: مقام العقل والآخرة.

وتكون هذه المقامات الثلاثة في الانسان الكامل على النحو التالي:

فأحدها مقام تعينات المظاهر.

والاخر مقام المشيئة المطلقة،وهو برزخ البرازخ،ومقام (العماء) على اعتبار .

والآخر مقام أحدية جمع الأسماء.

و يمكن أن تكون الآية الشريفة (بسم الله .... ) اشارة الى هذه المقامات الثلاثة.

فـ(الله) مقام أحدية الجمع.

و(الاسم) مقام البرزخية الكبرى.

والتعينات الرحمانية والرحيمية هي المشيئة.

**وله -باعتبار آخر- أربعة مقامات: الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت.**

وباعتبار آخر له خمسة مقامات: الشهادة المطلقة، والغيب المطلق، والشهادة المضافة، والغيب المضاف، ومقام الكون الجامع.

وذلك طبقاً للحضرات الخمسة المتداولة على لسان العرفاء.

وباعتبار آخر له سبعة مقامات، وهي المعروفة على ألسنة العرفاء بمدن العشق السبع، وأقاليم الوجود السبعة.

وعلى نحو التفصيل له مئة أو ألف منزل لا يسع هذا المختصر تفصيله.

ومثلما أن للانسان هذه المقامات والمنازل، فهي موجودة بصورة متطابقة تماماً في الصلاة، التي لها من بين العبادات والمناسك الالهية سمة الجامعية والشمولية. ذلك لان جميع المقامات المعنوية للانسان انما هي بحسب سفره المعنوي ابتداءً من منتهى النزول في العالم الملكي - حيث بيت النفس المظلم -، وصولاً الى الغاية القصوى للمعراج الحقيقي الروحي حيث الوصول الى لقاء الله[1].

كما يقول الامام الراحل ﷺ في مقدمة كتابه سر الصلاة الذي أهداه الى ابنه الجليل حجة الاسلام والمسلمين الحاج سيد أحمد الخميني (رحمه الله):

---

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٤٩.

(بني، الكتاب الذي أهديك اياه هو نفحة من صلاة العارفين، والسلوك المعنوي لأهل السلوك، على الرغم من أن قلم أمثالي عاجز عن تبيان مسيرة هذا السفر. وأعترف بأن ما كتبته لا يخرج عن حد بعض الالفاظ والعبارات، فانا لم أحصل الى الآن على بارقة من هذه النفحة.

ولدي، إن ما في هذا المعراج هو الغاية القصوى لآمال أهل المعرفة؛ وقد قصرت أيدينا عنها:

(لما الشباك فالعنقاء لا تصبح صيداً لأحد).

ولكن!! لا ينبغي لنا اليأس من ألطاف الله الرحمن؛ فهو – جل وعلا – الآخذ بأيدي الضعفاء ومعين الفقراء.

عزيزي.... الكلام هو في السفر من الخلق الى الحق، ومن الكثرة الى الوحدة، ومن الناسوت الى ما فوق الجبروت، الى حد الفناء المطلق الذي يحصل في السجدة الاولى، والفناء عن الفناء – وهو الذي يقع في السجدة الثانية – بعد الصحو، وهذا هو تمام قوس الوجود من الله الى الله، وفي هذه الحالة ليس هناك ساجد ومسجود له، ولا عابد ومعبود فهو الاول والآخر والظاهر والباطن)[1].

وما يمكن استنتاجه من هذه المطالب عبارة عن:

وجود المقامات والمنازل ضروري عند اهل السلوك.

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٣٨.

مسار سير السالك انما يكون من ظل اسم الرحمان الى ظل اسم الرحيم.

الانسان الكامل والولي الاعظم، بحسب مقام الشهادة والغيب يمثل تمام دائرة الوجود، والسالك انما يكون في حيطة ولايته في جميع مراحل سيره وسلوكه.

يمكننا تفصيل المقامات والمنازل الى مئة أو ألف منزل(هو امر اعتيادي)، بحيث ان كل سالك هو مقام خاص بذاته.

ان للصلاة من بين جميع العبادات وبحسب جامعيتها وشموليتها جميع هذه المقامات المعنوية، وهي براق السير ورفرف العروج لدى اهل المعرفة.

## مراتب ومنازل الصلاة

كما ذكرنا سابقاً، ان طي المراحل والمنازل بالنسبة للسالك الى الله هو امر بديهي. لذا نجد أن الاولياء الكمل تبعاً للمقامات التي عبروها وللمكاشفات التي حصلت لهم، ينقلون لاتباعم ما عاينوه وشاهدوه في تلك المنازل والمقامات، لانهم لا يأمنوا على بعضهم من خطر الشطحيات والخيالات الباطلة، وأيضاً كي لا يتجرأ الجاهلون على هذه المقامات.

من هنا شيد الامام الراحل قدس سره المقامات العرفانية على اساس راسخ وثابت، بحيث لا يصون فقط السالك من كل خطر، بل يضفي

على عقائد اصحاب القلوب حياة خالدة. فالامام الخميني‌﴿قدس سره﴾ وفي سياق تأكيده على ضرورة وجود مقامات ومراتب معنوية، يعتبر الصلاة أفضل مرشد ودليل للسالك الى الله في سفره المعنوي وعروجه الايماني، وهو يعرض ادلة كثيرة لإثبات احقية وصحة هذا السير والسفر؛ منها:

## حديث (الصلاة معراج المؤمن)

**الحديث المشهور المروي عن رسول الله‌ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»[1]، وتنكشف من التفكر والتدبر في هذا الحديث الشريف أبواب لأهله، نحن محجوبون ومحرومون من أكثرها[2].**

## حديث عبادة الاحرار

الحديث الشريف المروي في الكافي باسناده عن أبي عبد الله‌﴿عليه السلام﴾ أنه قال: **«العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله عزوجل خوفاً، فتلك عبادة العبيد؛ وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب للثواب، فتلك عبادة الأجراء؛ وقوم عبدوا الله عزوجل حباً له، فتلك عبادة الاحرار، وهي أفضل العبادة»[3].**

## حد الصلاة

جاء في الحديث ان رزاماً مولى خالد بن عبد الله الذي كان

(١) اعتقادات العلامة المجلسي، ص ٢٩.
(٢) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٥٢.
(٣) أصول الكافي، ج٢، الايمان والكفر، باب العبادة، حديث رقم ٥.

من الاشقياء، سأل الامام جعفر بن محمد عليه السلام بحضور ابو جعفر المنصور (الدوانيقي) عن الصلاة وحدودها، فقال عليه السلام: «**للصلاة اربعة الاف حد لست تفى بواحد منها**»[1].

الامام الراحل وفي سياق عرضه ادلة اثبات مراتب الصلاة، اعتبر أن شرط اداء الصلاة الحقيقية هو في قطع التعلق بغير الحق، فيقول:

**(ان قطع التعلق بغير الحق والوفود الى حضرته وبذل المهجة في سبيله، وترك الغير والغيرية بصورة كاملة، من الامور التي لا تتيسر لأحد سوى لاهل المعارف الالهية والاولياء الكمل والمحبين والمجذوبين)**[2].

بالتأكيد ان اداء فريضة الصلاة بشكل يومي في الليل والنهار، هو بحد بذاته دليل آخر على معارج ومنازل الصلاة. لان المؤمن طوال عمره يصلي خمس مرات يومياً، ولا يمكن ان يكون الاداء بهذه الكيفية من أجل التكرار، ولو انه بالظاهر يبدو كذلك، بل بمعنى أن كل صلاة يصليها المؤمن، هي بمثابة منزل من منازل السير والسلوك. وقلب المؤمن كلما كان فارغاً مما سوى الحق، كان سيره اقوى وارتقاؤه اسرع. والحالات التي يعيشها الائمة الطاهرين عليهم السلام حال صلاتهم لهي دليل واضح على هذا المدعى. يقول الامام الراحل واصفاً حالات الائمة عليهم السلام:

(١) فلاح السائل، ابن طاووس، ص ٢٣.

(٢) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٥٥.

إذن؛ فمن خلال التدبر في هذه الاحاديث الشريفة والتأمل في حال أئمة الهدى الذين كان يتغير لون أحدهم حينما يحل وقت أداء هذه الامانة الالهية الكبرى، وترتعد فرائصهم ويغشى عليهم ويذهلون عن كل ما سوى الله بصورة كاملة، حتى عن ملك أبدانهم ومملكة وجودهم، من هنا يتضح أن هذه الصورة الدنيوية والهيئة الظاهرية الملكية ليست هي حقيقة هذه العبادة الالهية، ووصفة العلاج الجامعة التي أعدت وأنزلت على القلب المقدس للرسول الاعظم لإطلاق هذه (الطيور القدسية) من قفص الطبيعة الضيق الى الكشف المحمدي التام.

فتلك الصورة الدنيوية الظاهرية يمكن لأي عالم عارف بالاحكام أو عامي يقرأ الابجدية أن يؤديها وفق شروط صحتها الصورية وكمالها الظاهري، فلا معنى - عندها - لذلك المقدار من تغيّر الألوان وارتعاد الفرائص والخوف والخشية من القصور والتقصير[1].

## رسوخ الطريقة في الشريعة

لم يضف الامام الراحل في كتابه سر الصلاة فقط روحاً جديدة بخصوص العلاقة بين الشريعة والطريقة مقارنة مع العلماء السابقين، بل جعل حقيقة العرفان كامنة في أحكام الشريعة، واعتبرها باطن ولب سائر العبادات الالهية:

وغاية مرادنا من هذا الفصل هو أن للصلاة بل لجميع

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٥٤.

العبادات باطناً ولباً وحقيقة غير هذه الصورة والظاهر والمجاز، وهذا ثابت عن طريق العقل، وعليه شواهد نقلية كثيرة[١].

واعتبر الامام ادراك هذه الحقيقة موقوف على الالتزام عملياً باحكام الشريعة، ومراعاتها بدقة.

وأعلم... أن طي أي طريق في المعارف الإلهية، لا يكون إلاّ بأن يبدأ الانسان من ظاهر الشريعة، وما لم يتأدب الإنسان بآداب الشريعة الحقة، لا يوفق لشيء من حقيقة الأخلاق الحسنة.

كما لا يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة، وتنكشف له العلوم الباطنية وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه لا بد من الاستمرار في التأدب بالآداب الشرعية الظاهرية أيضاً.

ومن هنا ندرك بطلان دعوى من يقول:(إنّ الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر)، أو(انه لا حاجة إلى الآداب الظاهرية بعد الوصول إلى العلم الباطن). وإن هذه الدعوى تعود إلى جهل من يتفوه بها، وجهله بمقامات العبادة ومراتب الإنسانية[٢].

على ضوء هذا، يلاحظ ان الامام الراحل يعتبر شرط صحة السير والسلوك وطي المنازل والمقامات هو في رعاية احكام الشريعة.

---

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ٥١.

(٢) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، ص ٣٠.

لذا مع وجود احكام الشريعة التي بلغها أمين الوحي للبشرية، لا حاجة لتعيين وترتيب المنازل والمقامات وفق الطريقة التي رتبها العرفاء. وما ورد في كتاب الاربعون حديثاً كان قد اختاره الامامﷺ من كنوز ولاية أهل البيتﷺ وعمل على شرحه وتفصيله، حتى شمل المئة او الالف منزل التي وردت في كلام العرفاء. وبهذا لم يقيد الامامﷺ نفسه بطريقة وترتيب العرفاء والاولياء الكمل. إن جوهر كلام الامام الراحلﷺ في العرفان العملي هو في ضرورة أن يهتم السالك بتهذيب نفسه ومجاهدتها بحسب حاله، الى ان تترسخ معلوماته في نفسه كملكات، ويعرج بالمعراج الحقيقي للوصول الى باب الله من خلال الالتزام بأحكام الشريعة، وهكذا يتصور الامامﷺ التوحيد الافعالي، لذا هو يقول:

**(أدخل في قلبك بأية وسيلة كانت التوحيد العملي الذي هو أول درجات التوحيد، وأجعل قلبك مؤمنا ومسلما، وأختم على قلبك بهذه الكلمة المباركة لا إله إلا الله بالختم الشريف) وأجعل صورة القلب صورة كلمة التوحيد، وأوصله إلى درجة الاطمئنان، وافهمه أن الناس لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فالله وحده هو النافع والضار. أزل هذا العمى عن عينيك، وإلا فستكون ممن يقول: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾[1].**

**وتحشر يوم كشف السرائر، أعمى. وأعلم أن إرادة الله تعالى قاهرة لجميع الإرادات، وإذا اطمأن قلبك بهذه الكلمة المباركة**

(١) سورة طه، آية: ٢٥١.

**وأسلم لهذه العقيدة، فالأمل أن يتمم عملك، وأن تستأصل جذور الشرك والرياء والكفر والنفاق من قلبك.**

**واعلم أن هذه العقيدة الحقة مطابقة للعقل والشرع وليس فيها شبهة الجبر[1].**

فالتوحيد الافعالي عند الامام الراحل ﷺ هو في تسليم القلب الى الله. وهذا لا يحصل الا بالمجاهدة الشديدة والمراقبة الدقيقة لخفايا القلب والمواظبة على الطاعات. لذا قام الامام ﷺ في كتابه الاربعون حديثاً بشرح المباحث الاخلاقية وفقاً للذوق العرفاني. وبعد أن بين ﷺ المفاسد الاخلاقية التي تهدد صحة عبادة وعبودية السالك، قام ببيان سبل علاجها وكيفية التخلص منها، لكل متألم حائر في وادي الطاعة والطريقة. واساساً اعتبر الامام ﷺ المباحث الاخلاقية من مقولة العمل وجعل لها مكانة خاصة في مجال العرفان العملي.

## صحة الطريقة على ضوء الولاية

من أهم خصائص فكر الامام العرفاني مسألة الولاية، والتي تمثل من منظور عرفاء الشيعة لب وجوهر العرفان.

فلقد استطاع الامام ﷺ أن يحدد معالمها سواء في العرفان النظري أو العملي ببراعة عالية، حيث ربط الشريعة بالطريقة وجعل الولاية ضمانة صحة الاثنين، وأدخل علم العرفان الى مقولة جديدة، بحيث جعل من الضروري اعادة النظر في الأفكار التي طُرحت سابقاً في

(١) الامام الخميني، الاربعون حديثاً، حديث الرياء، ص ٧٥.

العرفان ونقد الاسس الثابتة لهذا العلم من جميع الحيثيات بل وحتى الفلسفة.

فالبحث في هذا المجال يحتاج الى مقالة جديدة. لكن تبقى تتمتع الجهة الاعجازية في فكر الامامﷺ في جانب العرفان العملي، الذي هو موضوع بحثنا، بدقة بالغة ونفحات غيبية خاصة.

وكما ذكرنا سابقاً، يعتبر الامام الراحلﷺ منازل ومقامات السالك انما تدور بين ظلي الرحمان والرحيم، وظهور كافة المقامات يكون بين هذين الاسمين حيث تتم بهما دائرة الوجود، ويعتبر ان هذه الدائرة بتمامها هي في حيطة الانسان الكامل والولي الواصل.

ولذا جعل الصلاة الركن الاساس لهذه المقامات، كما انه يعتقد ان سبيل النجاة في السلوك الالهي لا يكون الا من خلال الولاية المطلقة، وبدونها لا يترقى السالك بمعراجه نحو الغاية المنشودة.

والسالك حينما يقتدي بسلوكه بافعال اولياء الله واقوالهم يصل الى أوج مراتب الولاية، يقول الامامﷺ في هذا المجال:

**والطريق الاسلم والاقرب للنجاة هو أن يسلم المصلي نفسه في جميع أقواله وأفعاله لروحية رسول اللهﷺ أو الى مقام من تؤول اليه الولاية أو امام العصر؛ فيطلب الثناء على الحق بلسانهم؛ ويقتدي في أفعاله أيضاً بأفعالهم؛ ويصبح وهو أمام الملائكة والجنود الإلهية مأموماً لمقام الرسالة والولاية، فيطوي هذا السلوك الروحي والعروج بالمعراج الإلهي بهداية أؤلئك العظام بحيث يكون تابعاً لهم بالكامل، ومسلماً لهم تماماً، فعليعليه السلام هو الصراط المستقيم**

**وصلاة المؤمنين وهو (خضر طريق السلوك)**[١].

وبناء عليه مقام الربوبية هو حقيقة السير والسلوك، ولهذا جاء في الحديث (**بعلي قامت الصلاة**) وايضاً يقول مولى المتقين : **انا صلاة المؤمنين وصيامهم**.

فالصلاة هي حقيقة السير والسلوك، وحقيقة الصلاة تكون في الولاية، واذا لم يدرك المصلي مرتبة ومقام ولاية أهل البيت عليهم السلام في صلاته متوجهاً اليها بأعماق روحه، عندها سيؤدي صلاته بصورتها الظاهرية دون أن يُحصّل صورتها الباطنية فتكون صورته في القيامة على هيئة قبيحة ظلومية.

## اقتصار الارتباط بعالم الغيب على الولاية

الولاية بلحاظ مرتبتها الوجودية هي حلقة وصل عالم الشهادة بعالم الغيب. والسائر الى الله لا يمكنه الاتصال بعالم الغيب من دون ولاية أهل البيت عليهم السلام، وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد هذا الحصر في قوله تعالى:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[٢].

والمقصود من السلطان هنا ولي الله الأعظم الذي هو الواسطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة. فالسالك بطائر هدايتهم فقط يستطيع

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ١٤٢.
(٢) سورة الرحمن، ٣٣.

ان يرد فضاء عالم الغيب، لان كل ما يسري على لسان الولاية له لحنه الغيبي.

بناء عليه، يكون الانسان الكامل وولي الله الأعظم هو الهادي العام لكافة الموجودات نحو عالم الغيب، وهو الهادي الخاص لاهل المعرفة في سيرهم وسلوكهم. والامام الراحل‌ﷺ بطرحه واثباته للولاية ضمن اطار الطريقة والشريعة يضفي على المقامات والمنازل تجلياً خاصاً، ويرى أن الموجودات في عالمي الغيب والشهادة محتاجة دوماً الى هداية ومحبة أهل بيت العصمة والطهارة وهذا من بديهيات الفكر العرفاني. كما أن تجذر الفكر العرفاني في الولاية قد غدا حقيقة لا تقبل الانكار حتى بالنسبة للذين لا يعتقدون بالفكر الشيعي.

*****

# الفصل التاسع

# الخصائص العامة لفكر الإمام العرفاني

# الخصائص العامة لفكر الامام العرفاني

الإمام ﷺ بالإضافة الى المسائل العلمية والتخصصية التي قدمها في العرفان النظري، قد سلك طريقاً مختلفاً عن الاخرين في عرض رؤيته وتوقعاته من هذا العلم. توضيح البعض منها يمكن ان يفسح المجال لاعادة النظر في العرفان الاسلامي مجدداً .

## مسار انتقال الفكر العرفاني

اساساً لم يأذن العرفاء بنقل الفكر العرفاني وتعليم اسراره وخفاياه لأي شخص كان، وأكدوا مراراً وتكراراً على ضرورة حفظ وكتمان الاسرار العرفانية، وكان دأبهم فقط تعليم من لديه الاستعداد لتعلم المسائل العرفانية والاحاطة بها، بل كانوا يختارونهم بانفسهم، ويقولون دائماً لتلامذتهم ومريديهم ان شرط التوفيق لفهم المفاهيم العرفانية والسير والسلوك هو في كتمان الاسرار وعدم اشاعتها للاخرين.

بالتأكيد ان السبب الاساس من وراء هذه الوصايا هي ردود فعل بعض الفقهاء والعلماء تجاه بعض المباحث العرفانية المغايرة عندهم

لنص الشريعة.

كما وان عدم تقديم الدليل حول بعض المسائل العرفانية او اللجوء الى اثباتها من خلال الكشف الشهودي أدى ببعض العرفاء لان يتهموا المخالفين بضعف الفهم والعناد الباطني.

وعليه يمكننا أن نستنتج ان حركة انتقال العرفان كانت من خلال نقل افكاره من انسان الى انسان آخر يتميز بذهنية عالية مستعدة لفهم مسائله.

أما الإمام الراحل ﷺ فبرغم اعتباره أن الاذهان المستعدة وغير المعاندة هي الأرضية المناسبة لفهم وانتقال المسائل العرفانية، الا انه لا يرى ان هذا هو المسار الالزامي الوحيد لنقل المسائل العرفانية. اذ لا يجب تأطير العرفان وحصره في مجال الافراد.

من البركات العظيمة لوجود الامام ﷺ، انه بالاضافة الى كونه عارفاً كاملاً وولياً من أولياء الله، استطاع ايضاً أن يعرض فكره العرفاني لينتشر في كافة ارجاء المجتمع، بدلاً من ان يكون محصوراً ببعض الافراد. ويتميز عرفان الامام ﷺ أنه في عين عمقه ودقته، إنه بسيط للغاية وسلس.

فلا يحتاج من يريد التعرف عليه الى تحصيل آداب الصوفيين الشاقة. واساساً تتجلى شخصية العارف في عرفانه، فروح الامام الراحل ﷺ مفعمة بالعرفان الخالص، وقوله وعمله يشهدان بذلك.

كما أن الثورة الاسلامية العظمية التي قادها الامام الراحل ﷺ

انما بنيت على العرفان الذي جوهره عبادة الله ومحوره الله تعالى.

فهو يعتبر ان العالم كله محضر الحق، وجميع الحوادث والظواهر مظاهر الحق. فاخرج المسائل العرفانية من حالة الاعتزال ومن قلب السالك لتسري في كافة عوالم الوجود.

وهو وبرغم احترامه البالغ للعرفاء القدماء ورؤيتهم،لم يعارض فقط مبدأ عدم نشر المباحث العرفانية،بل اعتبر حاجة المجتمع الى العرفان أقوى من أي علم آخر.

لقد استطاع الامام ان يعرض العرفان بعيداً عن سنن الصوفيين وآدابهم، وفي قالب من الآيات والروايات.

وعرفان كهذا ليس فقط لا يخدر المجتمع، بل يدفعه الى الامام.

العارف انطلاقاً من خلفيته الفكرية يرى انه من الضروري اصلاح المجتمع، لانه يرى العالم مظهراً لله، وجميع المظاهر هي في حال عودة الى الله، وهو يحب ان يكون هذا العود والرجوع مرضياً عند الله.

وعليه يعد العارف ايضاً مصلحاً اجتماعياً، لهذا يمكن وبكل جرأة اعتبار الامام الراحل عارفاً بالله بعد الانبياء والائمة المعصومين عليهم السلام، حيث مزج بين العرفان وبين ضرورة اصلاح المجتمع، وفضل المجتمع على الفرد ليكون الارضية الافضل لعرض فكره العرفاني.

## العرفان منشأ التحولات الاجتماعية

في العرفان المتعارف عليه فيما مضى، كانوا لا يعتبرون تأثير المعرفة العرفانية خارجة عن حالات الفرد ومقاماته، وكانوا يعتقدون ان تأثير العرفان محصور بالجنبة الفردية، والحالات التي تعتري العارف انما تتعلق بشخصه فقط.

كما كان البعض يعتبر أن كتمان المشاهدات وعدم إظهاراها يعد شرطاً لبلوغ المراتب الأعلى.

أما العرفان الذي يعرضه الامام الخميني ﷺ فتأثيره يطال كلا من الفرد والمجتمع.

فجوهر فكر الامام العرفاني يقوم على عنصرين: (معرفة المحضر) و(ومعرفة المظهر).

فالعارف عندما يصل اثر المجاهدة والسير والسلوك الى محضر الحق تعالى، يرى العالم كله أنه محضر الحق تعالى، كما قال الامام ﷺ: **(العالم محضر الله)**.

لذا دائرة العارف ليست محدودة بفرد ومكان خاص، بل كل العالم هو مجال العارف، والمجتمع جزء منه.

وان يغدو العارف عارفاً بمظهريته، بمعنى يرى نفسه مظهراً لله وتجلياً له، وحينما تتبلور في نفسه روح الشجاعة الجهاد، عندها لن يخاف من اية قدرة الا من الله، لانه يرى نفسه والجميع في محضر

الله. وهذان المبدأن هما اساس اصلاح المجتمع والنهضة الدينية.

والامام الراحلﷺ انطلق منهما ليؤسس الثورة الاسلامية العظيمة في ايران، وهو يقسم أنه وفي احلك ظروف حكم الطاغوت واكثرها ارعاباً، لم يخف من أحد سوى الله. واثناء مراحل الثورة الاسلامية والدفاع المقدس، اخذ يؤكد على هذه الفكرة باعتبارها اقوى سلاح في وجه اعداء الثورة الاسلامية، فيقول:(**الامة التي تقوم لله، لا تخاف من شيء**).

وايضاً:(**لا تسمحوا لأنفسكم بالخوف، فالله معكم**).

كما وإن تعلق الامام الخمينيﷺ الشديد بالقرآن، أوصله الى نتيجة مفادها انه لا ينبغي للشعوب المؤمنة بالله ان تخاف وتشعر بالرعب.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وعلى فرض أن الامام الراحلﷺ تملكه الخوف اثر اجواء الترهيب والتضييق في العام ١٣٤٢، الم يكن من الممكن أن يتم القضاء على الثورة الالهية في بداياتها؟!

ولو ان الامامﷺ اصابه قليلاً من الخوف والاضطراب حين عودته من باريس الى ايران (اعتقد المسئولون والسياسيون حينها انه من الممكن حينها ان يصاب الامام الراحلﷺ بمكروه، الم يكن من الممكن أن تأخذ ثورتنا مصيراً آخراً؟

ولو أن الحوادث المرعبة والمخيفة واستشهاد طلائع المجاهدين من ابناء الثورة الاسلامية أدت الى تزلزل الامام ﷺ، الم يكن من الممكن شهود تأثيرات سلبية على حركة الثورة؟!

فأجواء الخوف عندما تصبح هي المسيطرة من الطبيعي اذاً أن يتحطم كل شيء، ولا تتحقق الثورة. لكن الامام الراحل ﷺ بروحيته العالية، وعشقه لله تعالى، تألق في ساحة الجهاد مما أدهش الصديق والعدو، وجعل حضور الحق تعالى في كافة تفاصيل الحياة، وضرورة اصلاح المجتمع، اساس نهضته الدينية. وهذا الطرح ليس بجديد بل يمتد الى صدر الاسلام، وقوة الامام ﷺ تكمن بأن جعله امراً قابلاً للتحقق.

كما انه قام بفضح دعاة العلمانية الذين كانوا يدعون الى اصلاح المجتمع من خلال إقصاء الدين من الساحة السياسية والاجتماعية، وألحق الذل بهم.

وتجليات فكر الامام العرفاني لم تظهر فقط من خلال البعدين الفقهي والفلسفي في شخصه، بل شملت كل المرافق الفكرية والثقافية في البلاد، حتى استطاع في مدة قصيرة جداً ان يعزف نغمة العشق والانجذاب الى الله لتتغنى بها القلوب الظامئة في كافة أرجاء العالم.

وان آثار وبركات عرفانه التي كان مقدراً لها في السابق أن تبقى محصورة في قلب العارف، أضحت مع الامام منشأ تحول عظيم في العالم.

## الاعتزال أم المشاركة الاجتماعية

أغلب العرفاء ما أن يسلكوا طريق العرفان، حتى يروا أن الدنيا دون شأنهم ومنزلتهم، ويعتبرونها أسفل مراتب الوجود.

وان كل من ينفق سنوات عمره الثمينة في تدبير شؤونه الدنيوية، لن ينتفع من نعمة العرفان الحقيقي.

فالعارف لا ينظر ابداً الى هذه الدنيا الفانية، ولكي يحافظ على حالاته المعنوية يعتزل الخلق ويأخذ لنفسه ركناً خاصاً، ويدعو الجميع الى التزام الصمت والانزواء وترك شؤون الدنيا.

ولا يقتصر الامر على هذا بل هم يؤولون مسألة الإخلال بالمسؤوليات الاجتماعية واللامبالاة تجاه الظلم، بان الله تعالى هو من يدير العالم وان كل شيء خاضع في النهاية لارادته.

وهكذا يكون تسلط الاثرياء على رؤوس المال ومعاناة المستضعفين من الفقر المدقع امر حاصل بمشيئة الله وارادته، معتبرين أن أي سعي يهدف لاصلاح المجتمع لا طائل من ورائه.

واذا انقسم البشر بين عباد صالحين واخرين فاسقين، فذلك لن يؤثر على السنن الحاكمة على العالم. والصواب ان لا يقحم الانسان نفسه في معترك حياة الدنيا، وان يتفرغ لعباداته واعماله الخاصة.

إذاً هذا كان عصارة فكر غالبية العرفاء القدامى، الذين بتركهم للفساد يعثو في الخارج، مهدوا الطريق ليغدو المجتمع مرتعاً آمناً للسلاطين الظالمين،

ليمارسوا على شعوبهم أفظع انواع الاستغلال.

فهم انطلاقاً من معتقداتهم هذه ومن خلال الترويج لها داخل أوساط المجتمع، أخذوا يبررون خطأهم.

اما رؤية الامام العرفانية فلا تتبنى اعتزال المجتمع. بل يرى الامام ﴿قدس سره﴾ ان الفكر الذي يسطع من نور معرفة الله لا بد وان ينعكس نوره على المجتمع، كي يستفيد الجميع منه. والقلب المفعم بمحبة الله لا يخلو من محبة مخلوقاته. واساساً ان الاحساس مع الاخرين والقلق على مصير الخلق، انما تكمن مبادئه في الفكر العرفاني والديني.

ولو لم يكن الانبياء العظام والائمة المعصومين ﴿عليهم السلام﴾ عارفين بالله، لما اعتبروا الخلق مظاهر الحق، ولما عرّضوا انفسهم وارواحهم لعواصف الفتن والبلاءات من اجل هداية الناس وتخليصهم من انواع الظلم.

بناء عليه فان أصول الجهاد والقتال موجودة في العرفان. وعندما يترشح من عرفان القائد المصلح كل تلك الالام والحرقة تجاه عباد الله، فانه سيخرق جدار الصمت عند الناس، وسيسوقهم جميعاً الى اعلاء صرختهم عالياً في وجه الظالمين، فينزلوا جميعاً الى الساحة رافعين راية الحق والحرية.

اذاً عرفان الامام ﴿قدس سره﴾ ليس عرفان اعتزال، والمجتمع بفضل همته العالية ظل مصاناً من الاخطار، بل استضاء من شعاع نور جاذبية الامام ﴿قدس سره﴾ وعشقه.

كما ان عمق ونفاذ فكر الامامﷺ كان بقدر ان أضفى الحياة على كافة العلوم، فكلها مدينة للعرفان في حضورها داخل أوساط المجتمع. وبقدر ما كان الامام الراحلﷺ يبجل العرفاء المسلمين، الا انه كان ينتقد بشدة مبدأ فصل العرفان عن شؤون الحياة واعتزال العرفاء للمجتمع.

يقول الامامﷺ: **(الاسلام غريب، في بداية ظهوره كان غريباً، والان ايضاً هو غريب. فغربته ناشئة من عدم معروفيته. هو موجود في المجتمع لكنه مجهول، ولم يُعرف كما يجب في أي وقت من الأوقات.. يأخذون منه مقاطَع ويحذفون مقاطع اخرى، او انهم يخالفونها. لقد ابتلينا لفترة طويلة من الزمن بالعرفاء. لقد أبتلي الاسلام بالعرفاء، فبرغم خدماتهم الجليلة، الا انهم كانوا يحولون كل شئ الى تلك الجهة، كل آية تقع عليها ايديهم كانوا يؤولونها الى تلك الجهة.**

**من قبيل تفسير الملا عبد الرزاق، فمع انه رجل عالم جليل ذو فضل. لكنه صيّر القرآن باسره الى ذلك المعنى، وكأن القرآن لا علاقة له بهذه الاعمال. وفي فترة ما ابتلينا بمجموعة أخرى صيّرت المعنويات باسرها الى جهة ليس لها اساساً علاقة بعالم المعنويات.**

**وكأن الاسلام جاء لاجل السيطرة على العالم، مثلما جاء هتلر ليستولي على العالم ويفتح البلاد)**[1].

(١) الامام الخميني، صحيفة نور، ج١، ص ٤٠٠.

فما ميّز الامام الراحل ﷺ عن غيره انه لم ينح في سلوكه الاعتزال والخلوة بغية تهذيب باطنه، بل نهض لتطهير المجتمع من الفسق والظلم، معتبراً أن الدين وحده يمثل طريق نجاة البشرية وسعادتها. كما انه بحركته جدد منهج الانبياء والاولياء الالهيين في اصلاح المجتمع وتبيان معالم الدين.

بكل الاحوال رجال الله يأتون الى عالم الدنيا دون أن تتلوث نفوسهم الزكية برذائلها، وهم يدعون الغافلين الذين دسوا رؤوسهم في التراب الى عالم الغيب.

وهم وبرؤيتهم الثاقبة وكلامهم الهادي ودعوتهم الى الحق ينقذون البشرية من الهلاك. فهم راسخون كالجبال لا تهزهم الرياح والعواصف، ولا يسأمون من مصائب الدهر، ولا تظهر عليهم علامات الحزن والتعب.

واليوم لقد أضاءت تجربة حضور فكر الامام العرفاني في مراحل الثورة الاسلامية، على ضرورة نقد العرفان في الاسلام واعادة النظر فيه مجدداً، خاصة العرفان المبني على أسس التشيع.

وذلك لكي يتثنى للباحثين وللمحققين تمييز الفكر العرفاني الشيعي عن غيره أثناء دراستهم للعرفان وحكمهم عليه، ولكي يقروا بأن العرفان الشيعي يمكنه ان يغدو منشأ تحول واصلاح في المجتمع، وانه في رؤيته وبيانه ينسجم مع القرآن والسنة النبوية والسيرة العلوية.

ولهذا روج الشيعة في رؤيتهم العرفانية الى إمكانية أن يكون السلوك متاحاً للجميع .

وبالرغم من أهمية أن يكون لكل انسان مسلم ومؤمن خلوة وعزلة خاصة به للعبادة ولمناجاة المحبوب الحقيقي والبكاء بحرقة لما في ذلك من فوائد جمة، الا انه لا ينبغي الاشتباه والخلط بين اعتزال العرفاء الذي هو هروب من المسؤوليات الاجتماعية واللامبالاة تجاه احتياجات الناس، وبين العزلة الخلوة المطلوبة.

## منهجة العرفان

برغم ما يضفيه الكشف والشهود العرفاني من لذه عارمة في قلب العارف وروحه، وما يحويه بذاته من قيمة لا تضاهى بثمن، الا انه من الضروري منهجة العرفان عندما يُراد منه النزوع نحو المجتمع .

من هنا سعى المرحوم الملا صدرا لمطابقة العرفان مع مباني البرهان، فاتبع اسلوب الدليل والبرهان في تعليم المسائل العرفانية، فغدت أقرب للفهم والادراك.

وبرغم ما حققه هذا الحكيم الجليل من انجازات باهرة، لكن وبسبب غنى العرفان وتعارض مبانيه مع بعض المسائل الفلسفية، فقد أدى ذلك الى ان تبقى بعض مفاهيمه واسراره خارج إطار البرهان والدليل. ولتوضيح عدم الانسجام التام بين الفلسفة والعرفان نذكر بعض المسائل التالية:

يعود منشأ مسائل العرفان الى القرآن والاحاديث الشريفة، وفي النهاية الى الله عزوجل، مما جعل مباحث العرفان أكثر شمولية

وجامعية، بينما ترشحت احكام الفلسفة عن ذهن الفيلسوف، الذي احتاج من اجل اثبات عقائده الى ترتيب أصولها والاستدلال عليها. ومن هنا ظهر التعارض بين هذين المبدأين، فالثاني محدود باذهان البشر، أما الاول فلا يحده الذهن البشري بل أفقه يصل الى الحق تعالى.

ان امهات مباحث العرفان من قبيل معرفة الذات والاسماء والصفات وكيفية التجلي والسير في العوالم في قوس الصعود.... خارجة عن موضوع الفلسفة، لذا عندما لا تستطيع الفلسفة ان تجعل من تلك المباحث موضوعاً لها، كيف يمكنها ان تقدم البراهين عليها؟!.

نلاحظ ان مجموع المسائل العرفانية التي تقع موضوعاً للفلسفة، تذعن للبرهان، بينما لا تعترف المسائل البرهانية بالعرفان. لذا لا يمكن أن يحصل تطابق بين الاثنين.

لا يستطيع البرهان ان يظهر احاسيس العشق والحب الموجودة والحاضرة في العرفان، فهو عاجز أمام لغة الوجد العرفاني، فالفيلسوف يقتبس مسائل من العرفان لكنه يعود ويفسرها بلسانه.

اذاً هذه النقاط على أهميتها تبقى غير قابلة للحل، مما يعمق الهوة بين العرفان والبرهان، ويظهر لنا عجز البرهان عن منهجة العرفان. لذا شرع الملا صدرا وحتى ابن سينا و غيره من الحكماء لكي يبينوا وفقاً لما ذكرناه اعلاه المقصود من المعرفة العرفانية، وفي

بعض الموارد جعلوا من الشريعة سبيلاً لبيان طرق العرفان.

والاستدلال على الامر وبيان مفرداته في آثار الملا صدرا يحتاج الى بحث مستقل، نتطرق اليه لاحقاً ان وفقنا الله.

لقد اختار الامام الراحلﷺ احكام الشريعة لإظهار مسائل العرفان، وبالفعل استطاع ان يزيل المعضلات الاربعة التي ذكرناها آنفاً بين العرفان والبرهان.

لأن أحكام الفقه ومسائل العرفان تعودان الى أصل واحد هو القرآن والحديث فلا تعارض بينهما، وفي مقام اثبات وجود الله واسمائه وصفاته يتمسك الاثنان أيضاً بآيات القرآن والروايات. وفيما يخص البند الثالث فبدلاً من أن تطرح مسألة التطابق تطرح مسألة المراتب.

يعني انه يلاحظ في احكام الدين ثلاثة مراتب، الشريعة والطريقة والحقيقة.

فالشريعة تمثل ظاهر الحكم، والطريقة باطن الحكم، والحقيقة باطن باطن الحكم.

وبهذا النحو تكون كل مرتبة مهمة وضرورية بالنسبة للأحكام الدينية.

لقد كان الامام الراحلﷺ فقهياً مسلماً، لذا لم يجز في مقام اظهار العرفان الاستفادة من اية سنة من خارج الشريعة.

ولدخول وادي الطريقة يرى ﷺ انه لا بد من التوجه الى روح الشريعة وباطنها، و انطلاقاً من هذه الرؤية كتب ﷺ كتابه الشريف (سر الصلاة)، وهو أفضل وثاق في العرفان العملي، وتذكاراً خالداً منه.

**يقول ﷺ: والصلاة هي براق السير ورفرف العروج لدى أهل المعرفة وأصحاب القلوب؛ ولكل من أهل السير والسلوك الى الله صلاة مختصة به، وله منها حظ ونصيب على حسب مقامه.**

**وهذا هو حال سائر المناسك كالصوم والحج وإن لم تكن بجامعية الصلاة[1].**

كما ان الامام ﷺ من خلال ربطه العرفان بأحكام الشريعة، جعل حالات العشق والوجد تسري من العرفان الى الشريعة، ومن جانب أخر حفظ العرفان في ملاذ الشريعة كي لا تطاله تحريفات الصوفيين.

والعرفان الشيعي ليس فقط لا يتعارض مع الفقه، بل هناك اتحاد ماهوي بينهما.

فالفقه من دون العرفان لا يتجاوز الشكل والظاهر، ولا يوصل العبد الى باب الله والعروج بالمعراج الحقيقي، وكذلك العرفان من دون الشريعة لا يجد ترجماناً ينقل حقائقه، فالشريعة سلم الوصول والعرفان مقصد الوصول، والحديث المشهور (الصلاة معراج المؤمن) يشير الى هذه الحقيقة.

لذا يقول الامام الراحل ﷺ بعد ان قدم بحثاً وافياً حول اسرار الصلاة:

---

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٤٩.

**(وحصيلة مرادنا هو ان للصلاة ولجميع العبادات باطناً ولباً وحقيقة غير هذه الصورة والظاهر والمجاز)**[١].

## الراحلة والسفر

تكمن جاذبية العرفان وحيويته في أنه ينقل السالك من منزل الى منزل، ولا يبقيه في المقام ذاته. فعندما تتجلى على قلب السالك آثار المنزل الذي هو فيه، و يستأنس بما يشاهده، فانه مباشرة يطلب منزلاً آخر.

إلى أن يصل إلى مقام الفناء، حيث يفنى السالك عن صفاته وافعاله، وبتعبير الامام الراحل ﷺ :**(لو بقي في السالك بعضاً من انانيته، سيظهر له شيطانه الذي بين جنبيه بالربوبية، ويصدر منه الشطح، والشطحيات كلها من نقصان السالك والسلوك وبقاء الإنية والأنانية)**[٢].

لقد قدم الإمام الراحل ﷺ رؤية جديدة حول الأسفار الأربعة وطريق السير والسلوك، فهو يعتبر السفر الاول الظهور الفعلي للحق في عالم الوجود، وهذا الظهور الفعلي في الواقع هو ظهور الذات في مراتب الوجود، وهو نفسه جنبة يلي الحق[٣].

أي أن السالك في مرتبة من مراتب السير والسلوك، يرى المخلوقات باسرها مظاهر للحق وآياته، ولذلك لا يمكن إعتبار المخلوقات حجاباً ومانعاً

---

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٥١.

(٢) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ٨٨.

(٣) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ٨٨.

أمام السالك يلزم خرقه، بل هم مظاهر الله تعالى تليق بهم الخدمة، ولا ينبغي الشعور بالنقمة تجاههم أو السأم منهم. لهذا يقول الامام الراحل﴿قده﴾ في وصيته لابنه الفاضل المرحوم السيد أحمد:

**ولدي ما دمنا عاجزين عن شكره وشكر نعمائه التي لا تحصى، فما أفضل لنا ان لا نغفل عن خدمة عباده فخدمتهم خدمة لله تعالى فالجميع منه!**

**علينا ان لا نرى انفسنا أبداً دائنين لخلق الله عندما نخدمهم، بل هم الذين يمنّون حقّاً لكونهم وسيلة لخدمة الله جل وعلا**[1].

من اللافت جداً التفاوت الكبير بين منهج الامام﴿قده﴾ وغيره، فالامام الراحل لم يعتبر السفر الاول فقط هو الحق المقيد، اذ ليس هناك من سفر يبدأ أو ينتهي بمعزل عن الله. بل وسع من نطاق رؤيته العرفانية لتشمل البعد الاجتماعي بكل تفاصيله، فالعرفان الاصيل ينسجم تماماً مع حياة البشر، وهو مطلوب ومرغوب فيه. وهو﴿قده﴾ في رسالته العرفانية التي كتبها لابنه لا ينسى ذكر الخلق وضرورة الاهتمام بهم.

وبناء عليه لا يرى الامام﴿قده﴾ الخلق موانعاً وحجباً في طريق المعرفة والسير والسلوك، بل تتلخص الموانع بنظره في أمرين:

انانية السالك، التي ينبغي ان لا يكون لها اثر في مقام الفناء في الله، اذ في هذا المقام تفنى أفعال السالك تماماً.

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ٤١.

ان يعتبر السالك ان الانتقال في منازل السير والسلوك راجع لنفسه، او يعتبر أنه صاحب مقام أو منزلة.

ويرى الامام الراحلﷺ ان ادعاء السالك للسير والسلوك، هو بنفسه تعزيز للانا والانانية، وأن آثار الانانية لازالت باقية في نفسه. لأن السالك عندما يفنى في الله لا ينسب لنفسه شيئاً، بل يعتبر أن كل ما حصل عليه يكون منة من الله وبمحض عنايته. فلا يرى لنفسه منزلاً ولا مقاماً ولا ملكاً. فهو في سفر تغلب عليه أحياناً أحكام الوحدة، واخرى أحكام الكثرة.

وشهود الوحدة أو الكثرة هذه هو من جهة يلي الربي، فالسالك يسير في الآفاق والانفس وفي المشرق والمغرب وكافة العوالم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[١].

وعليه عندما يعيش السالك حضور الله الدائم في حياته، ويوليه وجتهه، فكيف يمكن أن يدعي السير والسلوك من دون وجه الله؟! فالوجهة الالهية هذه هي التي تصيّر السالك الى كل وجهة، فيكون في سفر مستمر من شهود جمال الحق الى ظهور اسمائه في الخلق.

(١) سورة البقرة، ١١٥.

## ازدياد المعرفة على ضوء الولاية

يكون سير وسلوك السالكين وطيهم للأسفار الاربعة، قائماً على اساس ظهور الرسم (الحد)، بحيث يكون كل سالك مظهر لهذا الرسم، يقول الامام الراحل ﵀ في هذا المجال:

**وليعلم ان هذه الاسفار الاربعة لابد وان تكون لكل مشرع ومرسل؛ ولكن المراتب مع ذلك متفاوتة والمقامات مختلفة، فان بعض الانبياء والمرسلين من مظاهر اسم (الرحمن) مثلاً. ففي السفر الاول يشاهد اسم الرحمن ظاهراً في العالم؛ وينتهي سفره الثاني باستهلاك الاشياء في الاسم (الرحمن)، ويرجع بالرحمة والوجود الرحماني الى العالم؛ فتكون دورة نبوية محدودة. كذلك مظاهر سائر الأسماء، بحسب الاختلافات التي هي من حضرة العلم؛ حتى ينتهي الامر الى مظهر اسم (الله)؛ فيشاهد في آخر سفره الأول الحق بجميع شؤونه ظاهراً، ولا يشغله شأن عن شأن. وفي آخر سفره الثاني باستهلاك كل الحقائق في الاسم الجامع الالهي؛ بل استهلاكه أيضاً في الأحدية المحضة. وهو يرجع الى الخلق بوجود الهي جامع، وله النبوة الأزلية الأبدية والخلافة الظاهرة والباطنية)[1].**

من هنا يرى الامام ﵀ ان سفر الانسان يكون تاماً عندما يصبح مظهر الاسم الجامع (الله)، وبرغم ان أولياء الله يطوون الاسفار الاربعة بنحو متفاوت، لكن لكونهم مظهر أحد الأسماء أو بعض الاسماء الالهية، فانهم لا يملكون ولاية تامة ومطلقة على جميع الاسماء وحقائقها. من

(١) الامام الخميني، مصباح الهداية، ص ٨٩.

هنا فان السفر الرابع مختص بالحقيقة المحمدية والعلوية، والولاية أزلاً وابداً من تلك الحقيقة.

ويخلص الامام الراحل ﷺ انه لا ينبغي للعبد السالك أن ييأس من بلوغ المعرفة التامة، بل يستطيع من خلال التمسك بالولاية النبوية والعلوية ان يبلغ ما فوق المعرفة البشرية، وأن يستكمل معرفته من خلالهما، ويرى أن شرط الوصول الى مقام الولاية التسليم لروحانية الرسول ﷺ، لذا نراه يقول بخصوص طريق النجاة:

**والطريق الاسلم والاقرب للنجاة هو أن يسلم المصلي نفسه في جميع أقواله وأفعاله لروحية رسول الله ﷺ أو الى مقام من تؤول اليه الولاية أو امام العصر؛ فيطلب الثناء على الحق بلسانهم؛ وأن يتمسك في أفعاله أيضاً بأفعالهم؛ ويصبح وهو أمام الملائكة والجنود الإلهية مأموماً لمقام الرسالة والولاية، فيطوي هذا السلوك الروحي والعروج بالمعراج الإلهي بهداية أؤلئك العظام، بحيث يكون تماماً تابعاً لهم، ومسلماً لهم بمحض التسليم، فعلي عليه السلام هو الصراط المستقيم وصلاة المؤمنين وهو (خضر طريق السلوك)[1].**

وعليه فان معرفة السالك تزداد لتصل الى أعلى المراتب في أحضان الولاية، فتُكشف له الحقائق بحسب استعداده.

والسالك اذا كان يحتاج في نيله للمعرفة الى الولاية، فمن باب أولى ان يحتاج الى الولاية في مجال الهداية التشريعية وتنظيم الامور السياسية والاجتماعية.

(١) الامام الخميني، سر الصلاة، ص ١٤١

وهذا هو سر الاحتياج والتعلق الأزلي والأبدي للبشر بولاية الأئمة المعصومين عليهم السلام.

على ضوء هذا نصل في تحليلنا لمباني ولاية الفقيه، انه بالاضافة الى وجود جملة من الآيات والروايات التي هي في محلها أدلة محكمة على اثبات ولاية الفقيه، هناك دليل أمتن يبتني على المعرفة العرفانية. بحيث لا تقتصر ضرورة ولاية الفقيه على تنظيم الشؤون الحياتية للبشر، بل تتعداها لتتمم معرفتهم ورؤيتهم الكونية.

لاننا نعتقد أن أولياء الله هم مظاهر الولاية المحمدية والعلوية العامة، وبامكانهم ان يجعلوا اقطرات وجودنا متصلة ببحر الولاية المطلقة، فالانسان بل وكافة الموجودات محتاجون الى الولاية لاستمراريتهم في الحياة ونيلهم للهداية.

ولا بد للارادة الانسانية ان تسلم لها بالكامل، لان ما هو ضروري للحياة، وما يتوقف عليه تكوينياً بقاء الموجودات، ليس فقط لا يخالفه العقل، بل ويرغب فيه بقوة ايضاً.

من هنا أسس الامام الراحل ﷺ في عصره لحكومة محورها ولاية الفقيه وهي تجلي للولاية المحمدية والعلوية. وقد سطع نجم الامام ﷺ كولي، وأثارت قيادته الدينية العجب والدهشة، اذ جعل صرخات انبياء الله وأؤليائه تصدح مجدداً من مأذنة الولاية في عصر اتسم بالفرار من الدين ومحاربة الحق، لتحيي بذلك النفوس المتلهفة للعدالة والحرية. والاجمل من ذلك أن الامام ﷺ يُرجع الخير كله الى وجود حكومة يتعهدها الولي الفقيه.

لقد انبثقت روح الولاية عند الامامؒ من فكره العرفاني، وهو ما ظهر بوضوح في سلوكه وحركاته وقراراته، وحتى في خطاباته السياسية والاقتصادية والعسكرية، فجميعها امتزج بالمفاهيم العرفانية، وقلما نجد كلام او كتابات للامام لا تتمتع بالذوق العرفاني.

والاكثر الفاتاً ان الإمام الخميني الراحلؒ كان يواجه اعداء الثورة والاسلام بخطابات عرفانية، من قبيل:

**(إثبتوا في مواجهة الأعداء، فإيران بالتوكل على الله تنتصر).**

إذا لقد استطاع الامامؒ بروحية الولاية أن يوصل الثورة الاسلامية الى النصر، والى بر الامان بعد أن أحاطت بها الازمات والمؤامرات من كل جانب، مقدماً لنا نموذجاً راقياً ثبت في وجه مخططات القوى المستكبرة، وعلماً هادياً لخلاص البشرية، مما اتاح لنا نحن الورثة أن نضمن لانفسنا ولغيرنا، سعادة وخيرهما الدنيا والآخرة، من خلال ما نقدمه من طاعة مخلصة وواعية.

*****

# فهرس الموضوعات

## الفصل الأول

## معرفة الله وتجلياته



## الفصل الثاني

## علم الحق تعالى

## الفصل الثالث

## المشيئة والإرادة

## الفصل الرابع

## الجبر والتفويض



## الفصل الخامس

## اعرفوا الله بالله

## الفصل السادس

## تسبيح الموجودات

## الفصل السابع

## ارتباط العرفان بالدين والفلسفة



## الفصل الثامن

## العرفان العملي

## الفصل التاسع

## الخصائص العامة لفكر الإمام العرفاني